بسم الله الرحمن الرحيم

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٥٤ ـ ذوالحجة ١٤٣٢هجرية قمرية

آبان ١٣٩٠هجرية شمسية / نوافمبر (تشرين الثاني) ٢٠١١

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥ـ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الطباعة: حسين المندلاوي / على حروف (**قلم برتر**) خاص بالنشر المحترف

النسخة رقم (٢) من www.MaryamSoft.com

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.IranArab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٥٤

وقفات عند فكر الإمام الخامنئي ٤

الصحوة والتجديد..... ١١

التثقيف وسيلة فكرية وعملية لتحقيق ٢٣

مشاريع عملية ثقافية تقريبية ٣٣

الحج رؤية عرفانية..... ٥٩

الحج في الشعر الفارسي ٧٠

الحج والحرم المكي في رحلات الحج الفارسية..... ٨١

أدب الاختلاف في مسائل الحج..... ٩٥

نظرة في كتاب روح الصلاة في الإسلام ١١٦

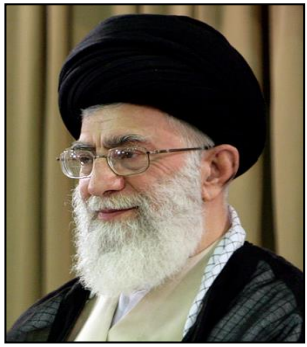

وقفات عند فكر

الإمام الخامنئي

نداء السيد القائد إلى الحجاج بيت الله الحرام

في موسم ١٤٣٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلوات الله وتحياته على سيد الأنام محمد المصطفى وآله الطيبين وصحبه المنتجبين.

حلّ الآن ربيع الحج بطراوته وصفائه المعنوي وعظمته وحشمته الموهوبة، وصيّر القلوب المؤمنة والمشتاقة تحلّق كالفَراشات حول كعبة التوحيد والوحدة مكة ومنى والمشعر وعرفات منازل أناسٍ سُعداء لَبّوا نداء ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ وفازوا بالحضور في دعوة الربّ الكريم الغفور. فهنا ذلك البيت المبارك ومنطلق الهداية، حيث تسطع منه الآيات الإلهية البينات وتمتدّ فيه مظلة الأمان على رؤوس الجميع.

اغسلوا القلب في زمزم الصفاء والذكر والخشوع، وافتحوا عيون باطنكم على آيات ربّ العالمين الباهرة، واتجهوا إلى الإخلاص

والتسليم فهما معالم العبودية الحقيقية، وأحيوا القلوبَ مرّات ومرّات بذكرى ذلك الأب الذي أخذ إسماعيله إلى المذبح عن طواعية وتسليم، وبذلك تعرّفوا الطريق اللاحب الواضح الذي وضعه أمَامنا للوصول إلى مقام الخليل للربّ الجليل، عزم ولوج هذا الطريق واحفظوا في همتكم المؤمنة ونيتكم الصادقة.

مقام إبراهيم واحد من تلك الآيات البيّنات. موضع قدم إبراهيم (عليه السلام) جوار الكعبة الشريفة، هو المظهر الوحيد لمقام إبراهيم. مقام إبراهيم هو مقام إخلاصه و إيثاره وتضحيته و إيثاره، هو مقام وقوفه أمام دوافع النفس وعواطف الأبوّة، وكذلك أمام سيطرة الكفر والشرك وسلطة نمرود العصر.

هذان الطريقان للنجاة ماثلان الآن أمام كل فرد من أفراد أمتنا الإسلامية. ما فينا من همّة وشجاعة وعزم راسخ يستطيع أن يقودنا إلى نفس تلك الأهداف التي دعا البشرَ إليها أنبياءُ الله من آدم إلى الخاتم، ووعدوا السائرين نحوها بالعزّة والسعادة في الدنيا والآخرة.

في هذا المحضر العظيم للأمة الإسلامية ينبغي للحجاج أن يتناولوا أهمّ مسائل العالم الإسلامي.

إنّ على رأس هذه المسائل جميعًا اليوم، النهوض والثورة في بعض البلدان المهمّة الإسلاميّة، بين حجّ العام الماضي وحجّ هذا العام برزت في دنيا الإسلام حوادث تستطيع أن تغيّر مصير الأمة الإسلامية، وتبشّر بمستقبل وضّاء مُفعم بالعزّة والتطور المادي والمعنوي. في مصر وتونس وليبيا أطيحَ بالطواغيت المتفرعنين الفاسدين التابعين،

وفي بعض البلدان الأخرى تتصاعد أمواج الثورات الشعبية لتهدّد قصور المال والقوّة بالإبادة والانهدام.

هذه الصفحة الجديدة من تاريخ أمتنا توضّح حقائق هي بأجمعها من الآيات الإلهية البينات، وتقدّم لنا دروسًا حياتية، هذه الحقائق يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار في جميع محاسبات الشعوب المسلمة.

الأولى : أنه انبثق من قلب الشعوب التي كانت لعشرات السنوات قابعة تحت السيطرة السياسية الأجنبية جيل من الشباب قد خاطر بنفسه ونهض لمواجهة القوى المهينة وشمّر عن ساعد الجدّ لتغيير الأوضاع.

والحقيقة الأخرى: أنه رغم سيطرة الحكام العَلمانيين وما بذلوه من سعي في العلن والخفاء لعزل الدين عن الحياة في هذه البلدان، فإن الإسلام بنفوذٍ وحضور باهر وعظيم قد صار موجّهًا للألسن والقلوب، ومثل ينبوع متدفّق بعث الطراوة والحياة في أقوال الجماهير المليونية وأعمالهم. وفي تجمعاتهم ومواقفهم. المآذن والمساجد والتكبير والشعارات الإسلامية معالم واضحة لهذه الحقيقة والانتخابات الأخيرة في تونس برهان قاطع على هذا الادّعاء. ومن دون شك فإن الانتخابات الحرّة في أي بلد إسلامي آخر سوف لا تكون لها غير نتيجة ما حدث في تونس.

والأخرى : أن حوادث هذا العام قد بيّنت للجميع أن الله العزيز القدير قد جهّز في عزم الشعوب و إرادتها قدرةً لا تستطيع أن تقاومها

أية قدرة أخرى. الشعوب بما وهبها الله من هذه القوة قادرة أن تغيّر مصيرها وتجعل النصر الإلهي من نصيبها.

والأخرى: أنّ الدول المستكبرة وعلى رأسها أمريكا قد عملت لشعرات الأعوام، بممارسة أحابيلها السياسية والأمنية، على إخضاع حكومات المنطقة ضانة أنها قد عبّدت طريقًا سالكًا للسيطرة الاقتصادية والثقافية والسياسية المتزايدة على هذا الجزء الحسّاس من العالم، وها هي الآن تواجه أمواجًا من السخط والرفض والنفور من شعوب المنطقة. ومما لا شك فيه أن الأنظمة المنبثقة عن هذه الثورات سوف لا تنصاع أبدًا لحالة عدم التعادل المهينة السابقة، وسوف تتغير الجغرافيا السياسية لهذه المنطقة بيد الشعوب وفي اتجاه التحقيق التام لعزّتها واستقلالها.

والأخرى: أن الطبيعة المزوّرة والمنافقة للقوى الغربية قد انكشفت لشعوب هذه البلدان. أمريكا وأوربا بذلتا كل ما يف وسعهما بشكل من الأشكال لإبقاء صنائعهما في مصر وتونس وليبيا، وحين تغلّب عزم الشعوب على ما أرادوه، توجّهوا إلى هذه الشعوب المنتصرة بابتسامة صداقة مزوّرة.

الحقائق القيّمة والآيات الإلهية البينة في حوادث العام الأخير بهذه المنطقة أكثر مما ذُكر وليس بالعسير على أهل التدبّر أن يروها ويعرفوها.

ولكن مع ذلك فإن الأمة الإسلامية بأجمعها وخاصة الشعوب الناهضة بحاجة إلى عنصرين أساسيين:

الأول: مواصلة النهوض، والحذر الشديد من وهن العزم الراسخ. الأمر الإلهي للنبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) في القرآن الكريم هو: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا﴾ و﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ وفي الكتاب الكريم على لسان موسى قوله سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

إنّ مصداق التقوى للشعوب الناهضة في هذه الفترة يتمثل في عدم توقّف حركتها المباركة، وأن لا تُلهينّها منجزات هذا المقطع. هذا هو القسم الأعظم من التقوى التي وُعد أصحابها بعاقبة الخير العميم.

الثانية: الوعي واليقظة أمام ما يكيده المستكبرون الدوليون والقوى التي صُفعت جرّاء هذه الثورات والنهضات. سوف لا يقفون مكتوفي الأيدي، بل سيتوجهون إلى الساحة بكل قواهم السياسية والأمنية والمالية لاستعادة نفوذهم واقتدارهم في هذه البلدان. آليتهم في ذلك التطميع والتهديد والخداع. التجارب دلت أن بين الخواص يوجد مَن تفعل هذه الآلية فعلَها فيهم، ويدفعهم الخوف والطمع والغفلة عالمين أو غير عالمين، إلى خدومة العدوّ. لابدّ أن تكون عيون الشباب اليقظين والمثقفين وعلماء الدين في حالة دقيقة من المراقبة.

إنّ أهم خطر هو تدخل جبهة الكفر والاستكبار وتأثيرها على صياغة النظام السياسي الجديد في هذه البلدان. سوف يبذلون ما

وسعهم كي لا تتخذ الأنظمة الجديدة هوية إسلاميّة وشعبيّة. المخلصون في هذه البلدان بأجمعهم والذين يحملون همّ عزة بلدانهم وكرامتها وتطورها كلهم يجب أن يسعوا إلى تحقيق إسلامية النظام الجديد وشعبيته بشكل تام وكامل. دور الدساتير له المكانة البارزة في هذا المجال. إن الاتحاد الوطني وقبول التنوع المذهبي والقبلي والقومي شرط لما يُستقبل من انتصارات.

لِتعلَم الشعوب الشجاعة الناهضة في مصر وتونس وليبيا والشعوب اليقظة المناضلة الأخرى أن نجاتها من ظلم وكيد أمريكا وسائر المستكبرين الغربيين يكمن فقط وفقط في أن يكون تعادل القوى في العالم لصالحهم. من أجل أن يستطيع المسلمون حلّ مسائلهم بشكل جادّ مع القوى العالمية الطامعة يجب عليهم أن يوصلوا أنفسهم إلى مشارف قوة عالمية كبرى. وهذا لا يتحقق إلاّ بالتعاون والتعاضد والاتحاد بين البلدان الإسلامية. وهذه هي الوصية الخالدة للإمام الخميني العظيم. أمريكا والناتو بذريعة القذافي الخبيث والدكتاتور صبّت النيران لأشهر على ليبيا وشعبها. والقذافي هو نفسه الذي كان يُعتبر قبل ما أقدم عليه الشعب الليبي من نهوض شجاع من أصدقائهم المقربين، وكانوا يحتضنونه وينهبون ثروات ليبيا على يديه، بل من أجل إغوائه يشدّدون على يديه أو يقبلونها.. وبعد نهوض الشعب اتخذوه ذريعة وهدموا جميع البنى التحتية في ليبيا. أية دولة استطاعت أن تحول دون مأساة قتل الشعب الليبي وانهدام ليبيا بيد الناتو؟ مادامت مخالب القوى الدموية

الطامعة والوحشية الغربية لم تنكسر فإن مثل هذه الأخطار متصوّرة للبلدان الإسلامية، ولا نجاة إلاّ بتشكيل قطب مقتدر من العالم الإسلامي.

الغرب وأمريكا والصهيونية اليوم أكثر ضعفًا من أي وقت مضى إنّ المشاكل الاقتصادية، والهزائم المتتالية في أفغانستان والعراق، والاعتراضات العميقة الشعبية في أمريكا والبلدان الغربية الأخرى التي تتسع يومًا بعد يوم، ونضال الشعب الفلسطيني واللبناني وتضحياتهما، والنهوض البطولي للشعوب في اليمن والبحرين وبعض البلدان الأخرى القابعة تحت نفوذ أمريكا.. كل هذا يحمل بشائر كبرى للأمة الإسلامية وخاصة للبلدان الثائرة الجديدة.

المؤمنون من الرجال والنساء في جميع أرجاء العالم وخاصة في مصر وتونس وليبيا عليهم أن يستثمروا أكثر فأكثر هذه الفرصة لإقامة القوة الدولية الإسلامية. ليتوكل الخواص وطلائع النهضة على الله العلي القدير ويعتمدوا على وعده بالنصر، ويزيّنوا الصفحة الجديدة المفتوحة من تاريخ الأمة الإسلامية بمفاخرهم الخالدة التي ترضي الله تعالى وتوفّر لهم عوامل نصرته سبحانه.

والسلام على عباد الله الصالحين

سيد علي الحسيني الخامنئي

٢٩ ذي القعدة ١٤٣٢ هجرية قمرية

٥ آبان ١٣٩٠ هجرية شمسية

الصحوة والتجديد

محمد علي التسخيري *

قد لا نأتي بجديد لو تحدثنا عن أهمية إعادة النظر المستمرة في مضامين الفكر الإسلامي وصيغه، بهدف تجديدها وتفعيل العناصر الساكنة فيها؛ لأن استشعار هذه الأهمية من قبل أصحاب الفكر والاختصاص بات من البديهيات التي لا تحتاج إلى دليل. وحسبنا أن الواقع المتغيِّر والحوادث المستجدة وسرعة التطور التي نعيشها بشكل يومي، تجعلنا في مواجهة دائمة ومباشرة مع ضرورة التجديد في الفكر الإسلامي. وبالتالي رفد مسيرة الصحوة الإسلامية وعصرنتها باستمرار. وهذا لا يعني أن الضرورة تبيح لنا فتح الباب على مصراعيه أمام كل دعوة للتجديد أو كل منهج يهدف إلى التجديد، بل على العكس، فإن تزايد تلك الأهمية تتناسب طرديًا مع تزايد الحاجة إلى ضبط عملية التجديد وتقنينها بالطريقة التي تجعل من التجديد وسيلة تمكِّن الفكر الإسلامي من استيعاب كل مجالات الحياة، وتجعل الاجتهاد أداة لإخضاع الواقع للشريعة،

---

* -الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

وحينها لا يكون التجديد هدفًا بذاته، بل وسيلة لبلوغ الغاية التي يحقق الدين من خلالها مقاصده وأهدافه.

وأعتقد أن عقد المؤتمرات والملتقيات يمثل – في جانب منه – حرصًا من قادة الفكر الإسلامي على حماية هذه الفكرة من موجات الاستهداف المباشر وغير المباشر، والتي ترفع ألوانًا مختلفة ومتنوعة من الشعارات البراقة أحيانًا والقاتمة أخرى. الأمر الذي يجعلنا حريصين على استمرار عملية التجديد بالمقدار نفسه الذي نحرص فيه على سلامة مناهج التجديد وأصالتها.

إن عملية التجديد التي نقصدها تتمثل في إيجاد صيغ فكرية جديدة تعتمد المصادر الإسلامية المقدسة، سواء كانت هذه الصيغ جديدة في موضوعاتها أو إنها معالجات لموضوعات قديمة أو أنها إعادة لتنظيم أفكا رموروثة. والمهم هو أن تكون هذه الصيغ قادرة على الإجابة على التساؤلات الجديدة، وقادرة أيضًا على تلبية الحاجات المتغيرة التي تفرضها تحولات الزمان والمكان.

وعلى هذا الأساس فإن الاجتهاد لصيق بعملية التجديد، فهو أداتها والمولِّد الذي ينتج مواد التجديد. وبرغم أن الاجتهاد يعني اصطلاحًا ـ على وفق الفهم الموروث ـ القابلية على استنباط الحكم الشرعي من مصادر التشريع الإسلامي، إلاّ أن تعميمه ليشمل كل مجالات الحياة، أو بالأحرى كل مجالات الفكر الإسلامي التي تتدخل في كل زوايا الحياة، سيجعل الاجتهاد منسجمًا مع أهداف الشريعة نفسها، والتي هي قانون الحياة. إذن، فالاجتهاد هو أداة

التجديد في فقه الأفراد وأداة التجديد في فقه المجتمع، وفي الفكر الاقتصادي والفكر السياسي والفكر الاجتماعي وغيرها، فضلاً عن قضايا علم الكلام، وأدوات الاستنباط وآليات فهم المصادر الإسلامية المقدسة، فهذه كلها تحتاج إلى الاجتهاد والتجديد. وهذا ما يجعل عملية التجديد ضرورية وخطيرة في الوقت نفسه. وتكمن خطورتها في حساسيتها البالغة وآلياتها الدقيقة وطريقها الصعب؛ لأن أي تهاون أو انحراف فيها – لا قدّر الله – سيؤدي إلى نتائج كارثية لا تتوقف آثارها على المجدد أو المجتهد أو الفكر وحده؛ بل تتعداه إلى الامة بأكملها أو إلى فصيل وشريحة منها. ولا نبالغ إذا قلنا بأن المفكر داعية التجديد، يمشي على حد السيف خلال عمله، وبالتالي فأي خطأ سينجم عنه منظومة كاملة من الأخطاء.

وتنطلق عملية التجديد من قاعدة المرونة أو عنصر المرونة في الإسلام، فعنصر المرونة هذا هو الذي أعطى للاجتهاد شرعيته، وخلق منه أداةً للتجديد في الفكر الإسلامي. ومن هنا ففهم عملية التجديد تبدأ من فهم عنصر المرونة في الشريعة الإسلامية ومظاهرها وتطبيقاتها. وهو ما سنحيله إلى محاور البحث.

بين التجديد والمرونة

التمييز بين التجديد في الفكر الإسلامي وعنصر المرونة في الإسلام؛ يمثل مدخلاً للتعرف على حقائق التجديد، ومدخلاً أيضًا لاكتشاف مظاهر المرونة وتطبيقاتها. ويتم هذا التمييز عبر

أساسين: الأول: أن الفكر هو تصور مستقى من الإسلام، أي أنه نتاج فهم المفكر للمصادر الإسلامية المقدسة عبر الأدوات الشرعية للفهم. وهذا الفهم –الذي يبذل فيه الفكر كل جهده ليكون النتاج الفكري أكثر قربًا من مراد الشارع المقدس –له علاقة أيضًا بطبيعة فهم المفكر للواقع. ومن هنا فإن الفكر المُنتَج يتأثر بثقافة المفكر ومعرفته بالعلوم ذات المدخلية بموضوع الفكر، فضلاً عن بيئة المفكر واستجابته لعوامل الاختلاف ونوعيته و إحاطته بجوانب الموضوع. وهذه العوامل متغيّرة من مفكر لآخر، الأمر الذي يؤدي إلى بروز نوع من الاختلاف بين النتاجات الفكرية فإن عملية الاستنباط هذه أو الفهم هي الحيز البشري في الفكر الإسلامي. وبالتالي فالتجديد الفكري يتأثر بمجمل هذه الحقائق؛ لأنه غاية المفكر التي يستخدم من أجل الوصول إليها فهمه للأصول المقدسة وللواقع أيضًا. وهو الذي يعبَّر عنه بالاجتهاد.

أما الإسلام فهو نظام شامل ومتكامل، ويعبِّر عن الثوابت التي لا تقبل التجديد بذاتها. وللإسلام أساليب ثابتة في التعامل مع الجانب الثابت في الحياة الإنسانية، وله أيضًا أساليب مرنة في التعامل مع الجانب المتغيِّر، أي أن مرونة الإسلام وشريعته السمحاء تقتصر على معالجة المتغيرات، التي تمثّل المساحة التي تتحرك فيها عملية التجديد.

الثاني: إن مرونة الشريعة تخلق مساحة مفتوحة من المتغيرات، وهي مساحة مشروعة تتدخل فيها الاجتهادات أو تصورات المفكر

والعوامل المتغيرة في شخصيته وفي فهمه، والتي يعمل المفكر في إطارها على تنظيم الجوانب التقنينية (التشريعية والتنفيذية) للحياة، بهدف إخضاع الحياة للشريعة. ومن هنا فإن البعد المرن في الشريعة هو الذي يحدد مجالات التجديد في الفكر الإسلامي ومساحاته. وهذه المساحات تتسع كلما ازدادت متغيرات العصر وضغوطاته وتحدياته.

مظاهر المرونة في الشريعة

لا تعني المرونة التنازل المبدئي أو الميوعة التنظيمية، فإن كلاً منهما يتنافى مع عقائدية المبدأ المرن وواقعيته العملية؛ ذلك أن العقائدية والواقعية توجبان ثبات الأسس العقائدية والمفاهيم التصورية وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على أساس من ذلك التصور الرصين، فالمرونة – إذن – تعني التكتيك والتدرج الواقعي الذي يلحظ ضغوط الواقع، ويستهدف تعميق التصور الأصيل، والوصول إلى تطبيق الصورة التنظيمية المثلى. كما تعني قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقعي لها في إطار الاطروحة العامة للتنظيم. وبالتالي فالمرونة هي اتخاذ موقف مؤقت يتغير بتغير الحالة بهدف المحافظة على الموقف العام.

والعقيدة لا تخضع لعامل المرونة، فهي الثابت – بالمطلق – الذي لا يخضع للمساومة تحت ضغط الواقع. في حين أن التشريع

وأساليب التطبيق والتبليغ فيهما جوانب متغيرة، ولذلك فإن لعنصر المرونة مدخلية في صياغاتهما ونظمهما. وهنا يكمن سر خلود الإسلام وبقائه وقابليته على استيعاب كل ألوان التطور والتحدي. وتتمثل أهم مظاهر المرونة في الشريعة الإسلامية بما يلي:

١ـ مقاصد الشريعة وقواعدها الفرعية، وهي كما يقول علماء أصول الفقه على نوعين: مقاصد عامة، وترتبط بالغايات العامة للشريعة، والتي من شأن أحكامها الكلية تحقيق مصالح الأمة. أما المقاصد الخاصة، فهي ترتبط بغايات باب محدد من التشريعات التي تحقق مصلحة معينة من مصالح الناس. والمقاصد الخاصة فيها أيضًا جزئية ترتبط بحكم شرعي معين. وقد اختلف الفقهاء والأصوليون في تحديد أنواع المقاصد العامة للشريعة، ولكنهم اتفقوا على خطوط عامة تدخل في إطار تحكيم العدالة وتحكيم الأخوة وحفظ الدين وحفظ النفس والعرض وحفظ النسل وحفظ المال و حفظ العقل وغيرها. وبما أن قضية المقاصد ترتبط بتحقيق المصالح ودرء المفاسد؛ فإن الخشية من الوقوع في ملابسات الظنون الفردية التي تتجاذب الأفراد، تجعلنا نحيل هذه القضية في المجالات الفردية إلى قطع المجتهد فقط، إما بالنسبة للمجال الاجتماعي أو أمر الأمة فتحال إلى ولي أمر الأمة الشرعي؛ لتكون جزءًا من اختصاصاته في عملية التقنين، وهي بالتالي مساحة مرنة في الشريعة ترتبط باجتهاد ولي الأمر وتشخيصه المصلحة التي تحقق مقصد الشريعة، كما سيأتي.

٢ـ الأحكام الشرعية التي تحدد موضوعاتها الأعراف وأهل

الخبرة، وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بتأثير الزمان والمكان في الاجتهاد ونوعية التأثير هذه لها مدخلية في موضوع المرونة؛ لأن تأثير الزمان والمكان في موضوع الحكم الشرعي هو الذي يحدد مضمون الحكم الشرعي وشكله. ومن مظاهر ذلك اختلاف مصاديق المفاهيم من مكان لآخر، كطبيعة الإسراف والغنى والاحترام وإعداد القوة وغيرها. كما أن متطلبات الزمان والمكان قد تتطلب –أحيانًا– تعطيل حكم ما أو نظام ما لفترة معينة؛ نتيجة التزاحم بين ضرورة تطبيق الحكم والآثار السيئة التي قد تنجم عن التطبيق في ظل ظروف معينة قاهرة. وإذا كان الحكم يرتبط بعمل الأمة فلابد من إيكال تشخيص التزاحم وتقديم الأهم لولي الأمر أيضًا.

٣. فتح باب الاجتهاد في مجال استنباط الأحكام الشرعية، وهي المساحة الأكثر مرونة في الشريعة نفسها، أي إن عملية الاجتهاد عملية بالغة الدقة وبحاجة إلى نوع متميز من التخصص الذي لا يستطيع أي مكلف بلوغه، بل ولا يستطيع المجتهد نفسه ممارسته برأيه واستحسانه. فالمجتهد إذا لم يعثر على دليل من مصادر التشريع فإنه يرجع إلى الأصول العملية، أي الاصول التي تحدد الموقف العملي عند غياب الدليل الشرعي النصي في إطار منهجية لصيقة بالشريعة. ومثال ذلك المسائل المستحدثة والجوانب التنظيمية الجديدة، سواء على مستوى فقه الأفراد أو فقه المجتمع، ككثير من قضايا العلوم التطبيقية والقضايا الداخلة في الأمور الحسبية،

كنظم المرور والتسعير والتعليم، وقضايا الإعلام والاتصالات والفنون والآداب وغيرها. والحقيقة أن النصوص التي تركتها مصادر التشريع تحديدًا (القرآن الكريم والسنة الشريفة) تتناول قضايا الواقع المرتبط بفترة الصدور، وتتناول أيضًا الخطوط العامة للنظم الإسلامية، إضافة إلى بعض الأحكام التي تستمر موضوعاتها مع الزمان والمكان. والحال أن كل يوم يمر على البشرية يحمل معه قضايا وموضوعات جديدة، لا تعجز الشريعة مطلقًا عن تحديد أحكامها، وذلك من خلال نافذة الاجتهاد، هذه المكرمة العلمية التي منحتها الشريعة للأمة (من خلال مجتهديها)، لكي تبقى قادرة على إخضاع واقعها لأحكام الدين الحنيف. وبالطبع فإن موضوع الاجتهاد يشتمل على تحديد دور العقل في عملية الاستنباط، كإدراك المصالح العامة أو إدراك التلازم بين أحكامه وأحكام الشرع.

ومن البديهي أن يرفض الشرع المقدس ـ خلال ممارسة عملية الاجتهاد ـ القواعد الظنية التي لم يقم على اعتبارها دليل قطعي، بل يحدد الاجتهاد في إطار القواعد التي قام على اعتبارها دليل قطعي؛ لأن الشارع لا يسمح للفكر البشري المحض أن يضيف من ذاتياته للإسلام. وهذا الأمر دليل على دقة عملية الاجتهاد، وكونها لا تترك للمجتهد اختراع منهجية أو قواعد وأصول غريبة عن جنس الشريعة، أي لا تفتح الباب على مصراعية للمجتهد بأن يجدد ويصلح ويطور في الشريعة كيفما شاء، هذا فضلاً عن غير المجتهد، فذلك من

باب أولى بأن لا يتدخل في هذه الأمور التي ليست من اختصاصه.

٤ـ تشريع الأحكام (الشرعية) الثانوية في الحالات الطارئة. فالحكم الشرعي –لاعتبارات مختلفة– ينقسم إلى حكم أوّلي وحكم ثانوي وحكم ولائي. وما يهمنا هنا هو الحكم الثانوي، ويمكن أن نعرّفه: بأنه الحكم المجعول للموضوع بلحاظ ما يطرأُ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغيير حكمه الأولي. وهذه الحالات الطارئة هي من قبيل: «الضرر»، «العسر والحرج»، «العجز»، «الإكراه»، «الخوف»، «.المرض»، «تزاحم الحكم عند تنفيذه مع حكم أهم منه»، «وقوع الحكم مقدمة لحكم آخر»، إضافة إلى تحوّل الأحكام الوجوبية الكفائية إلى تعيينية إذا انحصرت بشخص واحد. ومن هنا فالحكم الثانوي يعبِّر عن مرونة تشريعية؛ لأن المرونة هنا تعني الاستجابة للحالة الضاغطة بمقدار ما تحمله من ضغط. والحالة الضاغطة هنا ليست دائمة، بل إنها استثنائية، فمثلاً في حالة «الاضطرار» نستدل بالآية الكريمة: ﴿... فمن اضطر غير باغٍ فلا إثم عليه﴾[1] وفي باب تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وغيرها. وكذا في حالة «الحرج»، فإن الآية الكريمة تقول: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾[2] وغيرها. ولابد أن نؤكد هنا على أن الأحكام الثانوية تختلف عن الأحكام الولائية (أحكام ولي الأمر)، لأن الأحكام الثانوية هي أحكام شرعية وضعت

---

(١) البقرة/ ١٧٣.

(٢) الحج/ ٧٨.

للعناوين الطارئة، وتنحصر عناوينها فيما ذكر في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي ترتكز عليها، بينما ترتكز الأحكام الولائية على المصلحة العامة وتطلبات الوضع العام للمجتمع، ويصدرها ولي الأمر من منطلق صلاحياته، وهو الذي يحددها، بينما يستطيع الفرد تحديد الأحكام الثانوية في إطار الضوابط والشروط المنصوص عليها.

٥.المساحة التي ينفذ فيها حكم ولي الأمر، أو ما يصطلح عليه فقهيًا بـ«الأحكام الولائية» أو «الحكومية» أو «السلطانية»، وهي مساحة من الأحكام خاصة بولي الأمر الشرعي، أي الذي تولى أمر المسلمين في إطار ضوابط الشريعة، ومنها قابليته على استثمار هذه المساحة من الأحكام الشرعية، وهي القابلية التي ترادف القابلية على الاستنباط. ونعرف الحكم الولائي بأنه: الاعتبار الصادر من الحكم الشرعي بمقتضى صلاحيته الشرعية، والمتعلق بأفعال العباد، وهو يشتمل على الأحكام التكليفية والوضعية. وهذه الأحكام لا تطلق لكل مجتهد، فذلك ما يؤدي إلى تعدد الإرادات الاجتهادية، وبالتالي تفتت وحدة الأمة وتدمير كيانها، وهو ما يتناقض مع مقاصد الشريعة وروحها وغايتها، بل إنها تنحصر في الولي الذي حددت الشريعة مباني ولايته، أي الولي الحاكم. ومن هنا فالاحكام الولائية تختلف عن الأحكام الأولية والثانوية التي يحددها جميع الفقهاء، شريطة أن لا يكون فيها تقاطع مع الأحكام الولائية، كما أنها محددة بموضوعات معينة هي مساحة

المباحات في الشريعة وتشمل أساليب تطبيق الشريعة الإسلامية، كأساليب تطبق النظام المالي والاقتصادي أو أساليب تطبيق مبدأ الشورى. وتدخل الأحكام القضائية في هذا الباب. وباختصار فإن ولي الأمر يصدر الاحكام الولائية في إطار الكليات الشرعية ومقاصد الشريعة، وليس له في هذا المجال ـ كما يقول الإمام الخميني ـ أن يستبد بالأمر، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص، ثم ينتهي إلى الحكم الشرعي في ضوء:

١ـ مصلحة الأمة، وهنا تسمح الشريعة لولي الأمر بالنظر في المصالح وتحديدها عبر استشارة المتخصصين.

٢.الأضوية الكاشفة ـ كما يعبّر عنها الإمام محمد باقر الصدر ـ وهي التي أعطته إياها الشريعة ليسلطها على الواقع ويشخص الحكم المطلوب ، ومن هذه الأضوية الأحكام الولائية التي أصدرها الرسول العظيم بصفته وليًا للأمر، وهذا باب واسع لا نستطيع تفصيله هنا.

٣ـ الأولويات، وهي التي يواجه بها المساحة التي تتزاحم فيها الأحكام فيقدم الأهم على المهم، أو في إطار الاحتياط لقضية معينة، فيصدر حكمًا يستبق فيه وقوعها أو مضاعفاتها، كما هو الحال في مجال سد الذرائع التي يظن أنها تؤدي إلى المفسدة، أما الذرائع القطعية الأداء فهي محرمة بالعنوان الثانوي الذي يشخصه المكلف نفسه ولا تحتاج لحكم ولي الأمر.

وهنا لابد أن أوضح نقطة التقاء مهمة بين المدرستين الفقهيتين

الكبريين: مدرسة أهل البيت(ع) ومدرسة أهل السنّة، وتتمثل في سماح مدرسة أهل البيت(ع) لولي الأمر باستخدام قواعد المصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها، وهي القواعد التي لا يسمح الفقه الإمامي باستخدامها في عملية الاجتهاد بالنسبة لمجمل الفقهاء. فعلى مستوى التطبيق فإن الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضعت أعلى مجلس استشاري في الدولة هو «مجمع تشخيص المصلحة»، أي اكتشاف مصلحة الأمة وتحديدها، ثم تقديم القرار لولي الأمر بعد دراسة دقيقة، ثم يقوم ولي الأمر بإصدار الحكم الشرعي المناسب. ونرى أن هذا المجمع يبت في الخلاف – على مستوى التقنين – بين مجلس الشورى ومجلس حماية الدستور، إذ يتخذ القرار بتحديد القانون المناسب الذي ينظر فيه لمصلحة الأمة والدولة.

المؤمنون من الرجال والنساء في جميع أرجاء العالم وخاصة في مصر وتونس وليبيا عليهم أن يستثمروا أكثر فأكثر هذه الفرصة لإقامة القوة الدولية الإسلامية.

الإمام الخامنئي

التثقيف وسيلة فكرية وعملية
لتحقيق التقريب بين المذاهب الإسلامية

التثقيف والتحضّر والإحياء والتقريب مفردات تجمعها منظومة فكرية واحدة هي حركة الإنسان والمجموعة الإنسانية نحو الله سبحانه وتعالى.

ولتوضيح هذا الارتباط نبدأ بذكر معنى الثقافة وارتباطها بالحضارة ثم نبين معنى الإحياء وعلاقته بالتطور الحضاري، ومكانة التقريب في هذه المنظومة، ونقدّم مثالاً لمحاولات عملية ثقافية عملية للتقريب.

الثقافة

الثقافة التي نقصدها هذا المقال هي مجموعة ما في المجتمع من أفكار ومعتقدات وعادات وتقاليد وما يسوده من علاقات اجتماعية وسلوك فردي وجمعي: ومن الطبيعي أن كل مجتمع بهذا المعنى له ثقافة، فلا يخلو مجتمع من المفردات التي ذكرناها لمعنى الثقافة، غير أن ثقافات الشعوب تختلف من حيث تصورها للكون والحياة، وتختلف أيضًا من حيث وجود العناصر المحركة الفاعلة فيها.

من حيث التصور ثمة ثقافات تقصي الجانب الروحي من الإنسان، ومنها ما يأخذ بنظر الاعتبار الجانبين الروحي والمادي منه.

أما من حيث العناصر المحركة الفاعلة، فمن الثقافات ما يفتقد هذه العناصر، فتكون الثقافة عندئذ راكدة، ومنها ما يمتلك هذه العناصر فتكون الثقافة متحركة بمقدار فاعلية تلك العناصر.

الحضارة

نقصد بالحضارة في هذا المقال نتاج النشاط الإنساني من خلال حركته الثقافية، على الصعيدين المعنوي والمادي.

من الطبيعي أن المجموعة البشرية التي تتحرك في إطار ثقافة مادية لا تنتج سوى الحضارة المادية. وفي القرآن الكريم إشارة إلى هذا النوع من الحضارة، ويرى أنها تقوم على «العبث» و«البطش» يقول سبحانه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ،وَ إِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أما الثقافة التي تأخذ بنظر الاعتبار الجانبين الروحي والمادي فتنتج الحضارة الإنسانية التي تحقق الحياة الطيبة وتهدي السفينة إلى ساحل الأمان ودار السلام[1].

في معرض حديثنا عن الحضارة نقف عند ملاحظتين:

الأولى: إن الدعوة الإسلامية قامت على أساس عملية تثقيفية في إطار تصور يجمع بين الجانبين الروحي والمادي ولذلك انتجت حضارة إنسانية تجمع بين العلوم الإنسانية والمادية، وبتعبير آخر بين

١- انظر: مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، دار الفكر .

علوم الدين والدنيا، دون أي إفراط في جانب على الجانب الآخر، يدل على ذلك فهارس علماء الإسلام وتخصصاتهم المختلفة على مرّ التاريخ.

الثاني: إن الحضارة الإسلامية التي أفلت لأسباب تاريخية معروفة لم تتحول إلى حضارة أثرية كالحضارات التي بادت في التاريخ مثل الحضارة البابلية والآشورية والفرعونية.. بل هي حضارة يمكن أن تعود إلى الحياة على مستوى متطلبات العصر إن توفّرت لها الظروف الثقافية التي أدت إلى ازدهارها في القرون الأولى، أي ان توفّرت لها ظروف الإحياء.

الإحياء

يمكن تلخيص أهداف الأديان السماوية بكلمة واحدة وهي «الإحياء»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. الإنسان في النظرة الدينية مخلوق من «طين» ويرمز إلى الجانب الحيواني من الموجود البشري، وفي هذا الطين «نفخة روح رب العالمين» ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ وهذه النفخة هي الجانب السامي من الإنسان، وبها استحقّ أن يكون مسجود الملائكة.

والإحياء في المدرسة الدينية يعني تفعيل هذا الجانب المتسامي من الإنسان، كي يتحرك نحو كماله المنشود، ولكي تتفجر كل الطاقات المعنوية والمادية المودعة في فطرة هذا الإنسان. بعبارة

أخرى تفعيل الجانب المتسامي يعني توجيه الإنسان نحو بناء حضارة إنسانية شاملة.

أكبر مشكلة تعتري البشر على طريق تكاملهم هو تضخّم الصفات المنبعثة من «الطين»، بحيث تغطّي على «نفخة روح ربّ العالمين».

و إذا تضخّمت صفات الطين، أو النزعات الغريزية الهابطة في الإنسان، يبقى هذا الموجود البشري في دائرة «ذاتيته» و«أنانيته» لا يفكّر إلاّ بمصالحه الضيقة وبإشباع غرائزه الهابطة. وبذلك يصبح مُثقلاً بركام تلك الصفات والنزعات، ويبقى مقيدًا بالأغلال التي تمنعه من الحركة التكاملية. ولذلك فإن مهمّة الرسول هي أنه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإنسان القابع في ذاتيته مثل دودة تعيش في الأوحال بين الظلمات، فهو بعيد عن الله، ويعبد طاغوت النفس. والمؤمن يعيش في النور، ويتحرك نحو «الله»: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلى الظُّلُمَاتِ﴾.

كل المصلحين السائرين على طريق الأنبياء يحملون رسالة «الإحياء» ويمارسون مهمتهم حسب ما تقتضي ظروفهم.

يقول الشهيد مرتضى مطهّري: [1]

١- انظر: مرتضى مطهري، إحياء الفكر في الإسلام، ترجمة محمد علي آذرشب، بنياد بعثت طهران.

«القرآن يتحدث في كثير من آياته عن الحياة ومراتبها النباتية والحيوانية والإنسانية، وسنقتصر في حديثنا على وجهة النظر القرآنية حول الحياة الإنسانية.

القرآن في حديثه عن الحياة الإنسانية يتجاوز المظاهر البيولوجية للحياة كحركة القلب ودوران الدم ونظائرها. فهذه الحياة حيوانية لا تستطيع وحدها أن توضح الإطار الإنساني للحياة. وثمة نوع آخر من الحياة ينبغي أن يتزوّد به الإنسان كي يتمتع بالحياة الإنسانية، وقد يفتقد شخص هذه الحياة وهو يتمتع بكامل مظاهر الحياة البيولوجية. من هنا قال القرآن ﴿ليُنذر مَنْ كان حيًّا﴾. وهذا التعبير القرآني يوحي بتقسيم الناس إلى فئتين: حية وميتة. ويقول إن النداء الإلهي يجد طريقه إلى قلوب الذين لا تزال فيهم بقايا حياة. أما الذين افتقدوا الحياة فلا أثر للإنذار الإلهي عليهم.

القرآن يمثّل للحركة على طريق الله وللحركة على غير طريق الله، فيركّز على خصائص الحياة والنماء في الحركة الأولى، والجدب والموات والضلال في الحركة الثانية فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّه لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ

أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهِ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ويقول في موضع آخر:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾

الحياة التي يتحدث عنها القرآن هنا ليست بالحياة البيولوجية، بل حياة إنسانية، يخرج الإنسان بها من الظلمات البهيمية إلى نور الهداية الإلهية، ومن ظاهرة الموت التي تجعل الإنسان أرضًا صلدة غير قابلة لتقبل كلمة الحق، إلى ظاهرة الحياة التي تحوّل الإنسان إلى تربة صالحة لحمل الرسالة الإلهية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾

لكن هذه الاستجابة لا تتحقق فيمن انعدمت فيه كل مظاهر الحياة الإنسانية: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾..

الإحيائيون على مرّ التاريخ الإسلامي نهضوا بمهمة إيقاظ المسلمين واستنهاضهم وكان على رأس هؤلاء أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وأتباعهم. وفي تاريخنا المعاصر نهض إحيائيون عظام بهذه المهمة من أمثال: السيد جمال الدين الأسد آبادي، وعبدالرحمن الكواكبي، ومالك بن نبي، و إقبال اللاهوري، وعبد الحميد بن باديس، وأبو الأعلى المودودي، ومحمد باقر الصدر،

ومرتضى مطهري، وروح الله الموسوي الخميني، والسيد علي الخامنئي.

التقريب:

التقريب في فهمنا هو التوجّه النفسي نحو تجاوز الخلافات والبحث عن المشتركات.

هذه الحالة النفسية هي إفراز للثقافة المتحركة الإحيائية.. ولا يمكن أن تتحقق الاّ في جوّ حضاري. في مثل هذا الجوّ ترتفع تطلعات الإنسان إلى آفاق بعيدة وأهداف كبيرة، «وتصغر في عين العظيم العظائم».

ثم إنّ الإحياء يتجّه إلى ارتباط أعضاء الجسد الحي برباط عضوي، «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى». وفي حالة ضمور الحياة يضعف هذا الارتباط ويضمر.

من هنا نرى الإحيائي تقريبيين أيضًا، وهذا ما ثبت لدينا من خلال دراستنا لمسيرة التقريب في القرن الماضي[1].

عناصر الحراك الثقافي

ما هي العناصر التي تجعل الثقافة متحركة باعثة على الانتاج الحضاري؟

١- انظر: محمد علي آذرشب، مسيرة التقريب، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

هذا سؤال كبير شغل أذهان الإحيائيين جميعهم، وسعوا إلى الإجابة عنه من زوايا مختلفة ونذكر بعض هذه الآراء:

ارتباط الإنسان بالله تعالى .كما أراده سبحانه .هو في المفهوم الديني: رجوع إلى الله، وحركة بل فرار إلى الله، واستجابة لنداء الله، إنه بعبارة أخرى ارتباط متحرك بالكامل المطلق سبحانه، وسير على طريق اكتساب الكمال. والإنسان بفطرته يطلب الله، وفيه شعور ملتهب للحركة نحو مصدر كماله، لكنّ الآلهة المزيفة تتعملق على طريقه فتصده عن الحركة، وواجبه في الحياة هو اتقاء هذه الآلهية، وهذا هو معنى التقوى.

لعلّ هذا هو الذي أشار إليه مولانا جلال الدين الرومي .وهو في رأينا من الإحيائيين .[1] في قصة الناي.

يتحدث في أول مثنوياته عن الناي الذي يشكو ويحكي عن آلام الفراق. فهذا الأنين الذي نسمعه من الناي هي أشواق لأصله الذي انتزع منه يقول:[2]

بشنو از ني چون شكايت مي كند واز جدائيها حكايت مي كند
كزنيستان تامرا بُبريده اند در نفيرم مرد و زنناليده اند
أي: اسمع من الناي إذ يشكو وعن فراقه إذ يحكي
فما إن قطعوني عن مزرعة القصب حتى بدأت أئن ويئن معي الرجال والنساء

١- أنظر: التوجيه الثقافي، ط جامعة طهران، قصة الناي عند مولانا جلال الدين.

٢- عبدالباقي گولپينارلي، *نثر وشرح مثنوي شريف*، جلد اول ، دفتر اول ودوم، طبعة وزارت فرهنگ وارشاد إسلامي، ١٩٩٥، ص ٦٦.

فالموجود البشري يحمل أشواق العودة إلى أصله، وهو من الله، ففيه «نفخة روح ربّ العالمين» ولذلك فهو يحمل أشواق الاتجاه إلى الله.. أي الاتجاه نحو كل ما يتصف به الله من صفات الجلال والجمال.. نحو العلم والخلق والإبداع والجمال والقوّة والعزّة والكرامة والرحمة.. وهذه حقيقة الموجود البشري، والتأكيد على هذه الحقيقة فيه استشعار لعزّة الإنسان، واستثارة لأشواقه نحو الكمال.

الأنين الذي يصدر من الناي هو شوق الكمال الحضاري، وهو جوهر الإنسان، وهو «العشق» في التعبير العرفاني.

وفي هذا السياق أيضًا يطرح الإمام الشهيد محمد باقر الصدر نظريته التي تدور حول «المثل الأعلى» باعتباره العامل سبحانه هو الذي يوفر للمسيرة البشرية حركتها الصاعدة التكاملية نحو آفاق لا نهاية لها[1].

ومن الطبيعي أن المسيرة البشرية المتجهة نحو الله تتوفر فيها العناصر التي ذكرها الإحيائيون لتفعيل المسيرة الحضارية. من ذلك: التيموس أو العزّة بتعريفنا .فهو في رأي أفلاطون الطاقة المحركة لمسيرة التاريخ[2]. والعزّة تتوفر بشكل كامل حين يشعر الإنسان

١- انظر: محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، التفسير الموضوعي، مؤسسة الهدى الدولية ، طهران ١٤٢١هـ.

٢- انظر: فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير، مركز الانماء القومي، بيروت.

بارتباطه بخالق السماوات والأرض. و إلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

ويتوفر فيها القضاء على الاستبداد الذي يؤدي إلى الفتور والتخلف في مسيرة الحضارة كما يرى الكواكبي،[1] إذ ان الاستبداد ينشأ من طغيان «الذات» وتحولها إلى إله يصد الحركة إلى الله، وهو ما ينشأ من حالة الشعور بالاستغناء عن الله: ﴿إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ ﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وفي المسيرة المتجهة إلى الله يتوفر التبادل المعرفي بين الشعوب الذي هو عنصر هام من عناصر الانتاج الحضاري، لأن التعارف هو هدف التعددية في المجتمعات البشرية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

ويتوفر الانفتاح على الآخر والاستماع له، إذ إن شرط هذا الانفتاح هو تجنب الطاغوت بالتعبير القرآني:

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾

ويتوفر فيها اندفاع لطلب العلم والمعرفة، استجابة لدوافع تكاملية ذاتية واستجابة لدعوة دينية ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾

١- انظر: عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق د. محمد جمال الطحان، دار الأوائل ٢٠٠٣م.

مشاريع عملية ثقافية تقريبية

مجلة ثقافة التقريب:

انطلاقًا من أهمية التثقيف في عملية التقريب صدرت مجلة تابعة لرسالة التقريب هي «ثقافة التقريب».

وثقافة التقريب أعلنت عن أهدافها في العدد التجريبي الأول على النحو التالي:

١- تقديم مفاهيم التقريب وقضاياه باختصار، ومحاولة تطوير الأسلوب لينسجم مع حجم المقال والذوق الأدبي.

٢- التركيز على الجوانب العملية القائمة في الساحة وفي الأذهان بشأن وحدة الأمة الإسلامية.

٣- التوجّه إلى الثقافة العامّة للتنوير ولمعالجة الإشكاليات على ساحة أوسع من المهتمين بقضايا الأمة.

٤- ربط قضية التقريب بالمشروع الكبير للأمة وهو تفعيل ثقافتها وتوجيه حركتها نحو استعادة وجودها الحضاري.

حاولت النشرة التي صدر منها أخيرًا هذا العدد (٤٥) أن تقدم ما يرتبط بنشر ثقافة التقريب من خلال مقالات موجزة، وبلغة نحسب أنها بعيدة عن التعقيد والتخصص .

فقد رصدت كلمات القيادة الإسلامية في إيران ضمن إطار توجهاتها، ووقفت عند مفردات الابداع والابتكار والوحدة الوطنية والانسجام الإسلامي واستعادة الهوية والاستئناف الحضاري ودور آل

البيت في توحيد المسلمين ومحاربة البدع في ذكرى عاشوراء وقضية فلسطين وأمثالها.

كما ركزت في مقالاتها على:

- إبراز الشخصيات التقريبية ومشاريعهم.
- الأفكار التقريبية التي تبين أن التقريب فريضة وضرورة.
- عوامل الوحدة وأسباب التفرقة.
- دور الأدب الإسلامي في إيقاظ الشعور.
- دور الأدب الإسلامي في بيان وحدة الخطاب في الدائرة الحضارية الإسلامية، وفي أزالة الحساسيات القومية.
- إزالة الشبهات القائمة على طريق التقريب.
- عوامل التخلف الحضاري وسبل تجاوزها.
- التربية الروحية ودورها في توحيد القلوب.
- التجارب التقريبية في القرن الماضي.
- دور مدرسة آل البيت في توحيد صفوف المسلمين
- معنى الحياة في المفهوم الإسلامي ومشاريع الإحياء
- الحج ودوره في توحيد الأمة

كما خصصت أعدادًا لشخصيات تقريبية حضارية بمناسبة وفاتهم أو ذكرى وفاتهم:

مثل: الإمام الخميني، والشهيد مرتضى مطهري، والسيد مرتضى العسكري، والدكتور عبدالوهاب المسيري، والدكتور جعفر شهيدي، والسيد محمد حسين فضل الله.

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

بدعم من المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية تم تأسيس هذا المركز، وقد يطرح سؤال في هذا الشأن هو:

لماذا التعاون بين «التقريب المذهبي» و«التقريب القومي»؟

الغزو الاستعماري استثمر هاتين القضيتين: الطائفية والقومية معًا لإبعاد إيران عن دائرة الحضارة الإسلامية. وراح المستشرقون يؤلفون ويكتبون في «فارسية التشيّع» من أمثال دوزي، وفان فلوتن، وبراون، وولهاوزن، وبروكلمان [1].

وحذا حذوهم تلامذة المستشرقين من العرب والإيرانيين. ومن الطريف أن العنصريين من العرب والإيرانيين يجتمعون حول هذا المحور (محور فارسية التشيّع)، أولئك للطعن بالإيرانيين والتشيّع. وهؤلاء للثناء على الإيرانيين، ذاهبين -بزعمهم- إلى أن الإيرانيين تخلّصوا من المذهب الذي أراد العرب أن يفرضوه عليهم، ببلورة مذهب يتناسب مع ثقافتهم (كذا).

هذه الدعوى راجت بين العرب والإيرانيين، وتوغلت إلى الإعلام بل حتى إلى الكتب الدراسية، مما حدى بالمبدئيين العرب إلى الردّ عليها نظير ما فعل الدكتور أحمد الوائلي في كتاب: هوية التشيع، وهكذا فعل الإيرانيون المبدئيون من أمثال مرتضى مطهري في كتابه: الخدمات المتبادلة بين إيران والإسلام (بالفارسية).

١- أحمد الوائلي، *هوية التشيع*، ط ٢، دار الكتاب الإسلامي، ص ٦٤ .

هذا التعمّد في إضفاء الصفة الفارسية على التشيّع نجد آثاره بشكل أوضح لدى جارة إيران (العراق)، فقد حاول بعض المتعصبين القوميين في هذا البلد إلى هذا النوع من الإثارات الطائفية العنصرية منذ الثلاثينيات من القرن الماضي.

ويحدثنا الشاعر محمد مهدي الجواهري في كتابه ذكرياتي[1] عن جانب من الحرب التي شُنّت على الشيعة باسم العروبة!!

وليست ببعيدة عنا «قادسية»!! صدام حسين التي شنّ فيها حربًا لثماني سنوات على الجمهورية الإسلامية باسم محاربة «الفرس المجوس». والكلمتان تجمعان بين الإثارة العنصرية والطائفية.

ولا يزال الدافع العنصري القومي يلعب دورًا واضحًا في تأجيج الصراع الطائفي، وفي اتخاذ المواقف بين العامة بل وبين الخاصة أيضًا من أتباع المذهبين.

من هنا كان لابدّ من الاهتمام بنزع فتيل التعصّب القومي إلى جانب العمل على التقريب المذهبي، لما نرى في التعصب القومي من أثر واضح في تغذية التعصب الطائفي.

توضيح حول مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

هذا المركز تأسس عام ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م وحينها أعلن عن نفسه وأهدافه على النحو التالي:

١- محمد مهدي الجواهري، *ذكرياتي*، الجزء الأول، الفصل الثالث ، ص ١٣٧ – ١٦٧، الطبعة الأولى، ١٩٨٨، دار الرافدين، دمشق .

كان بين العرب والإيرانيين منذ أقدم العصور علاقات مشتركة في إطار الجوار الجغرافي والمصالح المشتركة، ثم جاء الإسلام ليزيل الحواجز القومية، وليعلن عن ولادة أمة ترفض كل تمايز في عنصر أو لون أو لغة و إقليم، وتتبنى أهدافًا رسالية إنسانية سامية .. فحدث التفاعل الكبير بين ثقافات المسلمين، ونشأت الحضارة الإسلامية، وتواصل هذا التفاعل حتى بدأ منحني مسيرة الأمة الإسلامية في الهبوط بسبب عوامل معروفة، ثم انتهى الأمر إلى هذه الحالة المؤسفة.

والملاحظ في التفاعل الثقافي بين أجزاء العالم الإسلامي أنه تواصل على مدى التاريخ، ولم ينقطع حتى في عصور السيطرة التتارية والمغولية على المسلمين، لأنها كانت سيطرة عسكرية، ولم تكن ثقافية.

أما في عصرنا الراهن فإن هزيمة المسلمين كانت بالدرجة الأولى ثقافية، ولذلك ضعفت بل انعدمت لديهم روح التواصل والعطاء، وروح الخلق والإبداع.

لا شك أن إعادة هذه الروح مهمّة كبرى يتحمّل مسؤوليتها كل من يستطيع أن يقطع خطوة على طريق شدّ الطاقات الفكرية والثقافية والعلمية والفنية في منطقتنا الإسلامية. إذ لا يمكن لبقعة من بقاع هذه المنطقة أن تسجل انتصارًا في أي ميدان من ميادين العلم والثقافة والإنماء دون تعاون سائر الأجزاء، وقد أصبح ذلك واضحًا كل الوضوح في العقود الأخيرة بشكل خاص بعد أن تكشف اشتراك العالم الإسلامي ووحدته في المصير وفي ما يواجهه

من تحديات.

من هنا ولدت فكرة إنشاء «مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية» ليكون -بإذن الله- خطوة نحو تحقيق الأمل الكبير. وهذه مواد نظامه الأساسي:

المادة -١: مركز الدراسات الثقافية الإيرانية -العربية الذي يسمى في هذا النظام الأساسي باسم (المركز) -مؤسسة ثقافية علمية مستقلة، غير سياسية، ذات مصلحة عامة لا ترتبط بأي جهاز حكومي، ولا بأية جهة لا إداريًا ولا ماليًا.

المادة -٢: يتكون المركز من رئيس المركز ومدراء الأقسام المختلفة ومجلس استشاري يضم جمعًا من العلماء والمفكرين والمهتمين بأمور العلاقات العلمية والثقافية بين إيران والعرب.

المادة -٣: مكان المركز في طهران، ويمكن أن يفتح فروعًا له في الداخل والخارج.

المادة -٤: تمويل المركز من مساعدات المهتمين بأمر أهداف المركز، ومن عائدات النشر وتنفيذ اتفاقيات علمية وثقافية في حقل الترجمة و إقامة الدورات التعليمية والمؤتمرات والمعارض المشتركة.

المادة -٥ : مجالات عمل المركز ما يلي:

أ -توفير الإمكانات اللازمة للدراسات العربية في إيران، والدراسات الإيرانية في العالم العربي.

ب -إقامة حوار بين الشرائح المثقفة والمفكرة الإيرانية والعربية عن طريق الندوات والكتابات.

جـ ـ تنفيذ مشاريع نشر اللغة العربية في إيران عن طريق وسائل الإعلام ونشر الكتب و إقامة الدورات الدراسية، وتوفير سبل تعليم اللغة الفارسية للعرب الراغبين في تعلمها.

د ـ ترجمة الكتب الفارسية المفيدة إلى اللغة العربية، والعربية إلى الفارسية.

هـ ـ توفير سبل تعرّف العرب على الثقافة المعاصرة في إيران، وتعرف الإيرانيين على الثقافة المعاصرة العربية.

و ـ نشر مجلة متخصصة في الدراسات الثقافية الإيرانية العربية يشارك فيها كتاب عرب و إيرانيون.

من أدبيات المركز: العرب والإيرانيون/ تحديات مشتركة

جاء في أدبيات المركز كما نُشر في موقعه (www.iranarab.com):

يواجه العرب والإيرانيون تحديات ثقافية مشتركة تهدد مستقبلهم منها :

١ ـ العولمة الثقافية والمعلوماتية وهدفها ملء أدمغة سكان الأرض وتكييف سلوكهم وفق إرادة قوى لا تقيم لهوية الشعوب وثقافتها وزنًا.

٢ ـ التطبيع : ويستهدف قبول الذلّ والاغتصاب طواعية وعن قناعة، وهو ما يحتاج إلى مقدمات أهمّها تذويب الشخصية والقيم ومصادرة روح العزّة والكرامة والمقاومة.

٣ ـ الغزو الثقافي: وهو ظاهرة مشهودة في كلّ مجالات حياتنا اليومية والفكرية والثقافية، مشهودة في الهزيمة الداخلية وفي روح الاستهلاك، وفي تعرّي المرأة، وفي الفنون الممسوخة وفي سائر شؤون الحياة.

٤ ـ الاستهانة بالمقدسات: فالمقدسات تشكل أساس الهوية وأساس الشخصية الثقافية المستقلة، والاستهانة بها والطعن فيها يستطيع أن يكسر كل الأطر التي تحافظ على الهوية والشخصية.

وما يطرح اليوم مما يسمى إبداعًا فنيًا مفعمًا بالفحش والطعن بالمقدسات، وكذلك ما تتعرض إليه المقدسات الإسلامية في فلسطين وأماكن أخرى من انتهاكات كلها تصب في عملية مدروسة تستهدف ثقافة الأمة في الصميم.

٥ ـ التغرّب: ويطرح تحت عنوان الحداثة وما بعد الحداثة ويطرح تحت عنوان مواكبة التطور العالمي. والحداثة ضرورة ومواكبة التطور العالمي ضرورة أيضًا، ولكن أكثر السائرين في هذه الضجة مهزومون داخليًا ومنقطعون عن الجذور، ودعوتهم لا تؤدي إلاّ إلى خدمة الذوبان الثقافي وتمييع الشخصية المستقلة الثقافية، ومسخ الفكر والأدب.

٦ ـ تحويل الإنسان إلى بهيمة: وهي خطة وراءها الصهاينة يعملون ليل نهار، لإثبات أنهم شعب الله المختار، وسبيلهم في ذلك تحويل البشرية إلى بهائم تشبه الخنازير في حظيرتها لا شغل لها إلا المضاجعة وممارسة الجنس. ولهم في ذلك شبكات دعارة عالمية وفضائيات

ومواقع كثيرة على شبكات الاتصال، ومراكز لإنتاج المجلات والأفلام وعرضها. وتركز بالدرجة الأولى على إغواء المسلمين. ومن المؤسف أن كثيرًا من أموال النفط تذهب إلى جيوب هؤلاء، وليت الأمر يتوقف على المال، فالعقل والشخصية والهوية كلها تقدم قرابين على مذبح الشهوات، هذا إضافة إلى سلامة الأفراد وصحتهم.

٧ ـ المخدرات: وتستهدف وعي الإنسان في الصميم، وبالتالي شخصيته وفكره وثقافته وعواطفه، وتستهدف العلاقات الاجتماعية والأسرية، وتشكل أكبر خطر على هوية الأمة ووجودها الحضاري، ولدى المسؤولين الإيرانيين وثائق كثيرة تدل على أن ثمة خطة مبيتة لهدم شخصية المجتمع الإيراني عن طريق إشاعة المخدرات. ولابد أن هذه الخطة تستهدف العالم الإسلامي بأجمعه.

٩ ـ التطرّف: وهو ظاهرة خطرة مشهودة في عالمنا الإسلامي ابتليت بها كل المجموعات الإسلامية وغير الإسلامية، غير أن التركيز أخيرًا ينصب على الجماعات الإسلامية لأسباب معينة، ويتحدد بعدم رعاية موازين الاعتدال في الرفض والقبول. ويؤدي عادة إلى ردود فعل سلبية، وسببه بالدرجة الأولى عدم وجود تربية صحيحة ترسخ السلوك المتعادل للأفراد، وتبدو بوضوح في الحوار أو الشجار الدائر في الساحة الثقافية تجاه مختلف الأمور.

١٠ ـ العنف : وهو أيضًا ظاهرة طبعت الجماعات السياسية بمختلف فصائلها في العالم الإسلامي، وأقصد بالعنف مواجهة الرأي الآخر بالشدّة، والابتعاد عن روح الحوار واللين والكلمة السواء التي

دعا إليها القرآن، والعنف له أسبابه النفسية والثقافية والتربوية، وأخطاره وتبعاته واضحة.

١١ ـ التخلف العلمي والثقافي: وهي حالة واضحة كل الوضوح لا تحتاج إلى بيان، تتمثل في تخلفنا في التقنية والتعليم ومواكبة مسيرة التطور العلمي والمعرفي.

١٢ ـ القراءة المشوهة للإسلام: وهذه تظهر بأشكال مختلفة تسيء إلى الإسلام. منها القراءة المتخلفة المشهودة في بعض بقاع العالم الإسلامي حيث توضع المرأة والأفكار والعقول وراء قضبان من السجون باسم الإسلام، أو القراءة المهزومة أمام الفكر الغربي التي لا تلتزم بأي أصول وقواعد منضبطة لفهم الإسلام.

هذه وأمثالها تحديات ثقافية تواجه العالم الإسلامي وتتطلب من الإيرانيين والعرب أن يواجهوها ضمن خطة تتناسب مع جذورهم الثقافية المشتركة ومع متطلبات الواقع الراهن.

مجالات التعاون المستقبلي:

عند الإيرانيين والعرب كل المقومات الثقافية اللازمة لاستعادة مكانة الأمة على الساحة العالمية. ولكن الأمر يحتاج إلى جهود جبارة لوضع أطر التعاون وأسس التحرك الثقافي المشترك، والتغلب على الصعاب. ومن مجالات تنشيط التعاون الثقافي الإيراني العربي:

١ ـ بلورة خطاب مشترك

خطاب إيران كان يقوم منذ انبثاق الثورة الإسلامية على أساس

وحدة الأمة الإسلامية والتقريب بين فصائلها ومذاهبها. لكن هذا الخطاب كان معتَّمًا، ومشوبًا بتضليل إعلامي كبير، وكان مصحوبًا بأخطاء هوّلتها وسائل الإعلام المعادية. واستمرت هذه الحالة طوال العقد الأول من عمر الجمهورية الإسلامية، ثم خفّت بالتدريج في العقد الثاني نتيجة ظروف سياسية كشفت أوراق المزيفين.

غير أن الطريق الذي تمرّ به العلاقات الإيرانية العربية سيكون ملغومًا بما يحاول تفجير الموقف ويصادر المكتسبات، لأن هذا التقارب سيفوّت على المستفيدين من تأزم العلاقات الإيرانية العربية فرصًا كبيرة. ونحن نلاحظ أن وسائل الإعلام العالمية في منذ بداية العقد الثالث من عمر الثورة بدأت تركز على الإثارات الطائفية والقومية بين الإيرانيين والعرب، كما نشاهد نشر كتب مشبوهة في هذا المجال، أضف إلى ما تمارسه الدوائر الاستكبارية من عمل مكثف يستهدف تصوير تخلي العرب والإيرانيين عن هويتهم ومقدساتهم وقبولهم بواقع الهيمنة الأمريكية.

ويتحمل العرب والإيرانيون مسؤولية استثمار هذه الفرصة المتاحة ومواصلة الطريق بخطى حثيثة، وبوعي على أخطار الطريق، عليهم أن يستغلوا كل فرصة للحوار وبلورة خطاب وحدوي مشترك.

٢ ــ الاهتمام الكبير الموجود في إيران بتعلّم اللغة العربية، والاهتمام النسبي الموجود عند العرب بتعلّم اللغة الفارسية:

فالحاجز اللغوي أمر لا ينبغي أن نتجاهله، وهذا الحاجز لا بد من

إزالته عن طريق فهم لغة الآخر.

رواد النهضة في إيران اهتموا باللغة العربية، ونجد مظاهر هذا الاهتمام في ارتباطهم بعيون الأدب العربي وبأدبيات النهضة في العالم العربي، وفي ما أقرّ بعد انتصار الثورة الإسلامية في الدستور بشأن اللغة العربية، وفي ما نراه من نشر واسع باللغة العربية، يفوق ما ينشر في كثير من البلدان العربية، غير أن كلّ ذلك لم يبلغ الدرجة المطلوبة بسبب عدم تعاون العالم العربي مع العاملين في إيران على نشر اللغة العربية، وعدم وجود برامج متطورة لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

وفي العالم العربي تقف مصر في مقدمة البلدان العربية التي اهتمت باللغة الفارسية، فكل جامعاتها ـ على ما نعلم ـ تضم فروعًا متخصصة في اللغة الفارسية، وفي كل العالم العربي يأخذ طالب اللغة العربية والتاريخ وبعض فروع العلوم الإنسانية عددًا من حصص اللغة الفارسية. غير أن كل هذا الاهتمام لم يبلغ مستوى تلبية حاجة العالم العربي لمتخصصين في اللغة الفارسية والشؤون الإيرانية يضعون المهتمين في العالم العربي في صورة المشهد الثقافي الإيراني، كما يصنع المتخصصون العرب في اللغات الانجليزية والفرنسية والروسية مثلاً.

ولكن وجود الرغبة لدى الجانبين أولاً، ووجود محاولات جادّة في هذا المجال ثانيًا، يشجع على المضي في تطوير ما هو موجود ليبلغ

مستوى الطموح. والوزارات المعنيّة في إيران والعالم العربي، وهكذا مراكز الدراسات الشرقية فيهما تتحمل مسؤولية النهوض بهذه المسؤولية، إضافة إلى المعاهد والمنتديات المهتمة بالتقارب الإيراني العربي.

٣ ـ كان للأدب العربي تأثير واسع على الأدب الفارسي، وكان للأدب الفارسي أيضًا تأثيره الواضح على الأدب العربي، وهذا التأثير المتبادل أثرى الأدبين أكبر الإثراء لما حدث بينهما من تفاعل جادّ حقيقي بعود إلى اشتراكهما في الجذور والثقافة.

وبعد عصر الاستعمار انقطع هذا التفاعل بالتدريج بسبب الحواجز السياسية، ثم ما إن حدثت النهضة العربية الحديثة حتى تحسّس روّاد النهضة بضرورة الاتصال بين الأدبين العربي والفارسي، فنجد كثيرًا منهم على اتصال بالأدب الفارسي أمثال: محمود سامي البارودي رائد نهضة الشعر في مصر، ومحمد الفراتي وعبد الرحمن الكواكبي من رواد النهضة في سوريا، وجميل صدقي الزهاوي ومحمد مهدي الجواهري من رواد الشعر العراقي الحديث.

وتنبّه الدكتور عبد الوهاب عزام إلى أهمية التفاعل الأدبي بين إيران والعرب فنشط في ذلك أيّما نشاط. وربّى في مصر جيلاً من المهتمين بالأدب الفارسي تلته أجيال لا تزال حتى اليوم تهتم بالأدب الفارسي دراسة وترجمة وتعليمًا.

وفي إيران أيضًا اتجه مَنْ تَنَبَّهَ إلى أهمية التفاعل بين الأدبين العربي والفارسي نحو قراءة الأدب العربي وترجمته والتعريف بالأدباء

العرب، لأنهم وجدوا في الأدب العربي القديم والمعاصر ما يغنيهم عن الآداب الأوربية التي لا تمت إلى جذورهم بصلة.

وشهدت السنوات الأخيرة اهتمامًا نشطًا بالأدب الفارسي في مصر وسورية والإمارات العربية المتحدة والكويت، عن طريق ترجمة الشعر والرواية والقصة، وكتابة دراسات، و إقامة ندوات.

ومن المتوقع أن هذه الحركة .لو استمرت .لاستطاعت أن تنقذ الأدبين العربي والفارسي مما أصيبا به من ضعف نتيجة اللقاء المهزوم الذي تم بينهما وبين الأدب الغربي، ولاستطاعت أن تعيد للأدبين الأصالة والاستمرار في التطور القائم على الجذور.

ولا يخفى ما للحركة الأدبية من تأثير على إحياء روح النهضة، ولا يمكن لمشروع نهضوي أن يتجاهل دور التطور الأدبي فيه.

٤ ـ الاهتمام بالفكر الأصيل المعاصر

حركتنا الفكرية في إيران والعالم العربي كانت مشتركة على مرّ العصور، والتيارات الفكرية التي ظهرت في العالم الإسلامي لم يكن لها حدود جغرافية، ثم جاءت التيارات الفكرية الغربية لتدخل إيران والعالم العربي في أشد فترات هبوط الفكر وخلوّ الساحة من القادة المبدئيين في هذه المنطقة. وانفعل العالم الإسلامي بهذه التيارات ولم يتفاعل بها. وسادت موجة من الإلحاد والتشكيك في الدين، والاستهانة بالتراث، وبكل ما هو أصيل، وانفصل الأزهر عن الجامعة الحديثة، تبعه انفصال الحوزات العلمية في إيران عن الجامعة، ثم حين تخلّى قطاع من المثقفين عن ولائهم

السياسي لأوربا .اليمين اتجهوا إلى جانب أوربا .اليسار، وكأنّ أوربا أصبحت هي القبلة التي لا مناص من التوجه إليها على أي حال.

ولو استقصينا موجة التغرب بين الإيرانيين والعرب لرأيناها واحدة في منطلقاتها وتوجهاتها وخطابها، دون أن يكون بينها صلة غالبًا.

ثم ظهر تيار العودة بكل سلبياته و إيجابياته المشتركة في العالم العربي و إيران، سلبياته المتمثلة في ما شابَهُ أحيانًا من السطحية وفقدان الرؤية المستقبلية الواضحة وفقدان المنهجية في الحركة، والإفراط والتفريط في النظرة إلى التراث و إلى الغرب، والإيجابيات المتمثلة في رفض الهزيمة، والعزم على استعادة العزّة، والإيمان بأن استعادة الكرامة لا يمكن أن تكون إلا على أساس من الأصالة والاستمداد من الجذور.

وهذا التيار، بكل ما يتضمنه طيفه من ألوان التوجهات والأذواق والرؤى، له مكانته الكبرى في واقع إيران والعرب، وعليه تعقد الآمال في مستقبل حرّ كريم.

وأهم ما يعانيه هذا التوجّه الفكري هو الجمع بين الأصالة والمعاصرة، وهذا الجمع يتطلب فهمًا واضحًا معمقًا للتراث بعيدًا عن النصوصية والتحجّر والتقليد، كما يتطلب فهمًا للواقع بعيدًا عن الهزيمة والذوبان والتبعية، وليس هذا الأمر بالسهل، لكن كلاً من العرب والإيرانيين يمتلكون في هذا المجال تجارب لا يستهان بها. العرب يمتلكون هذه التجارب منذ وقت مبكر، أي منذ أن دخلت خيول نابليون الأزهر، والإيرانيون امتلكوها منذ وقت متأخر عن ذلك

حين حدثت الحركة الدستورية (المشروطة) في أوائل القرن العشرين، ثم هم دخلوا في تجربة عملية رائدة للجمع بين الأصالة والمعاصرة بعد إقامة الدولة الإسلامية في إيران.

وتبادل هذه التجارب على غاية من الأهمية لوقاية هذا التوجه الفكري من كل ما ران عليه من سلبيات، و إثراء الإيجابيات.

من هنا نرى من الضروري اجتماع النخب الفكرية من الإيرانيين والعرب لتأصيل فكرنا ودفعه نحو مواكبة متطلبات العصر.

٥ ـ الاهتمام المشترك بالجمع بين القومي والإسلامي

المشروع الإسلامي في عصور التاريخ الإسلامي استطاع أن يزيل التناقض بين التوجه القومي والتوجه الديني، ولذلك أمثلة لا تحصى كلها تثبت زيف ما يقال: إن التوجه القومي كان هو المسيِّر لأحداث القرون الإسلامية الأولى. رغم اعترافنا بوجود نزعات قومية وعشائرية، غير أن الهوية الإسلامية كانت هي الغالبة في التوجه العام للمجتمع الإسلامي. ولا نعني بغلبة الهوية الإسلامية إذابة الفوارق القومية القائمة في اللغة والعادات والتقاليد ومصالح القوم، بل نعني أن هذه الفوارق أخذت مكانها المناسب ضمن إطار الهوية الإسلامية، ولم تطغ على هذه الهوية، أو تصطدم بها.

ثم تضخم المشروع القومي في القرن الأخير تحت التأثير الأوربي واصطدم بالمشروع الإسلامي، فكانت هناك الدعوة القومية أو المليّة (بتعبير الإيرانيين) والدعوة الإسلامية، وهذا الاصطدام كان له أكبر الأثر في تخلف حركة التقدم في العالم العربي، كما أنه أحبط

أكبر مشروع لحركة التحرر أيام تأميم النفط في إيران.

ثم ظهرت في إيران والعالم العربي موجة المصالحة بين القومي والإسلامي ولكن العملية تحتاج إلى مزيد من الحوار للتوصل إلى مشروع يضمن تطلعات التوجهين.

العالم العربي شهد حوارًا جادًا بين التيارين الإسلامي والقومي، و إيران تشهد مثل هذا الحوار لا على مستوى الندوات والمؤتمرات، بل على مستوى اتخاذ المواقف العملية المنسجمة مع المبادئ والمصالح القومية.

والمسألة لم تحسم عند الجانبين، وأعتقد أن تبادل التجارب في هذا المجال يعمل على تسريع عملية وضع الصيغة المناسبة للمشروع الذي يحفظ المصالح القومية في الإطار الإسلامي، كما يعمل على إزالة الحساسيات القومية الموروثة من عصر التنافر القومي بين الإيرانيين والعرب.

٦ ـ الاهتمام المشترك بالاستقلال العلمي

ثمة إيمانٌ بدأ يترسخ في أوساطنا الجامعية يرى أن التعاون مع الجامعات الغربية، رغم ما فيه من اكتساب للمعارف والعلوم، لا يعطينا الأسس اللازمة للتطور العلمي، بل يفيدنا في تراكم المعرفة لا غير، ولابدّ لتحريك روح الابتكار والاختراع في العقول والنفوس من تعاون بين جامعات ما يسمى بالدول النامية. ولكن هذا التعاون يحتاج إلى جهود صخمة لتذليل العقبات الإدارية، واجتياز موانع البيروقراطية المهيمنة مع الأسف على جامعاتنا، كما يحتاج أيضًا إلى

إيمان عام يسود أفراد مجتمعنا بأن عقولنا ليست بأقل من عقول أبناء البلدان المتطورة، أي لا بدّ من استعادة الثقة بالنفس كمقدمة لازمة لهذا التعاون.

إن العرب والإيرانيين المهاجرين يشكلون نسبة عالية من الطاقات العلمية المبتكرة والمخترعة في أوربا وأمريكا، كما أن كثيرًا من الاختراعات العلمية في العالم العربي و إيران يقدمها الباحثون العرب والإيرانيون إلى مراكز البحث العلمي الأوربي لقاء ثمن بخس، ثم تستثمرها تلك المراكز باسمها.

ربما لا نستطيع نحن العرب والإيرانيين أن نواكب التطور التقني في العالم الصناعي لهبوط الإمكانات المالية أو لعدم الاهتمام أصلاً بالتخطيط العلمي، ولكن العقول لم تعقم ولم تنضب، بل تنقصها الثقة والدعم، و إذا قُدّر لهذه العقول أن تنشط ضمن برنامج مدروس لأمكن أن تكون عائدات بلداننا من بيع المعلومات العلمية أكثر بكثير من عائدات موادنا الخام، أضف إلى ذلك أن هذا التفعيل للعقول وتوجيهها يساهم في تطوير المشروع الحضاري للعالم الإسلامي، ويسجل له المكانة المناسبة على صعيد التطور العلمي في العالم.

نعتقد أن العالم الإسلامي بحاجة إلى مجمع للمخترعين، وأهميته لا تقل عن أهمية المجمع الفقهي التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

٧ ـ الاهتمام المشترك بمواجهة الغزو الثقافي

العالم بأجمعه يواجه غزوًا ثقافيًا باسم «العولمة» هدفه فرض نمط الحياة الأمريكية على الكرة الأرضية، ثم هناك الصهيونية التي تعمل جنبًا إلى جنب مع السياسة الأمريكية لمسخ هوية الشعوب، وإشاعة البهيمية في ربوعها، مستخدمة الفضائيات العالمية، ومخترقة فضائيات المنطقة.

وإيران تواجه منذ انتصار الثورة عملية مكثفة لتزلزل النفوس المؤمنة بثورتها وعقيدتها، والتشكيك في كل القيم والمقدسات، وإشاعة روح الهزيمة واللامبالاة، والعالم العربي أيضًا يواجه عملية غسل دماغ واسعة لمواكبة عملية التطبيع، ولكسر روح المقاومة والصمود، وإبعاده عن استشعار العزّة والكرامة.

من هنا فإننا نعيش تحديات مشتركة تريد أن تحولنا إلى جسد ميت لا يحسّ بألم الجراح ولا يثور إذا ما طعن في كرامته وعزّته.

وفي تراثنا الثقافي الديني والأدبي ما يستطيع أن يقي أمتنا أمام هذا الغزو المكثف، شرط أن تتظافر الجهود لإحيائه ونشره وتعميقه في النفوس.

بإمكاننا أن نضع خطة عامة تُسخّر لها الكتب الدراسية ووسائل الإعلام ومراكز التربية والفنون الأدبية والاستعراضية والسينمائية لصيانة هويتنا من هذا الغزو، وهذا يتطلب إيمانًا عامًا بتعرضنا لغزو، ومعرفة بطبيعة هذا الغزو وسبله ومحاور عمله .. ثم وضع الخطة الشاملة لمواجهته.

٨ ـ التعاون التراثي

إيران تضم كنوزًا كبرى في التراث الإسلامي العربي، وأقول: «العربي» لأن جلّه مدوّن باللغة العربية، والمكتبات العربية تضم هي الأخرى كنوزًا تراثية، هذا غير آلاف المخطوطات في المكتبات العالمية.

وهذه الكنوز فيها كلّ ما يفيدنا لأن نبني عليه حركتنا الحضارية. ولكن حركة إحياء التراث في منطقتنا الإسلامية ليست على المستوى المطلوب لأسباب أهمها:

أ .روح الاستهانة بالذات، فكل ما هو أصيل لا يلقى عندنا اهتمامًا، اللهم إلا إذا اهتم به الغرب. العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان كان يقول: نحن لا نمجّد شخصياتنا العلمية إلا إذا مجدها الغرب. فابن سينا كان من ربوع وطننا، وكتبه كانت موجودة بين ظهرانينا، ولكن جامعاتنا لم تهتم به إلا بعد أن اهتم به الغربيون، فكأنهم قد اكتشفوه لنا، ونحن رحنا على أثرهم ندبّج المقالات ونقيم الندوات والمؤتمرات.

ب .عدم وجود المشروع الحضاري الذي يستطيع أن يستمد من التراث مقوماته، فمادام هذا المشروع غائبًا، وما دامت حركة أمتنا الحضارية متوقفة، فإننا لا نستطيع أن نستوعب التراث ونفيد منه، لذلك ننظر إلى كتب التراث وكأنها «ألسنة الأموات» كما شاع في كلام المتغربين الإيرانيين، بينما ساهم هذا التراث بشكل جاد في صنع الحضارة الغربية، ومن الأولى أن يكون أساسًا لنهضتنا الحضارية.

من هنا يمكن أن يكون بين العرب والإيرانيين توجه جديد إلى التراث، يحييه وفق منظور حضاري واضح، وعملية الإحياء إن كانت قائمة على وضوح الرؤية والنظرة المستقبلية فإنها تساهم إلى حدّ كبير في إزالة روح الهزيمة النفسية، كما تساهم في تجميع لبنات المشروع الحضاري للأمة الإسلامية.

وفي إيران توجد مؤسسات متخصصة بإحياء التراث في قم وطهران ومشهد، كما توجد مراكز إحياء التراث العربي في أكثر العواصم العربية، ويمكن أن يكون بينها تعاون وثيق في إطار بنّاء.

٩ ـ التعاون الفني

الفنون تمثل جانبًا هامًا من ميزة الهوية الحضارية للعرب والإيرانيين، ولا يمكن فصل الفن عن الطابع الحضاري للأمة، وكانت فنون هذه المنطقة الحضارية توحّدها من أقصاها إلى أقصاها، في حقل العمارة والموسيقى والرسم و.. وفي العصر الحديث بقيت هذه الفنون بدرجة وأخرى تطبع منطقتنا بطابعها الخاص، غير أنها لم تتطور بسبب ضعف التحرك الحضاري، ثم انفتح عالمنا على فنون أوربية جديدة، أخذها وحاول أن يوائم بينها وبين موروثه الثقافي، ويتوقف مدى نجاح عملية المواءمة على القدرة الفنية الإبداعية وعلى التعمق في روح التراث، ولا تزال هذه العملية تراوح بين النجاح والإخفاق، ولا تزال تعتبر من التحديات الهامة التي تواجه هويتنا الحضارية وموروثنا الثقافي.

إيران قطعت بعد الثورة أشواطًا هامة على طريق تطوير الفنون

القديمة وتأصيل الفنون الحديثة، ففي مجال الفنون القديمة التي أوشك بعضها أن ينسى سعت الأجهزة التراثية إلى حشد أساتذة هذه الفنون ودفعهم إلى تطوير فنهم، و إلى تعليم طلبتهم، ثم إن كل البلدان العربية لها من هذه الفنون التقليدية ما تحرص على صيانته وتطويره، والتوجه المشترك بين البلدان العربية و إيران نحو تطوير الفنون القديمة يصون عمارتنا من المسخ وموسيقانا من الابتذال وفنوننا من التقليد العشوائي، كما أن بذل المساعي المشتركة على طريق تأصيل الفنون الحديثة يفسح لنا المجال لأن ننفتح على الفنون الحديثة ونتفاعل معها لا أن ننفعل بها، ونجعل منها مشروعًا حواريًا علميًا بين الحضارات، يحافظ على نقاط القوة، ويتجاوز مساحات الضعف التي لا تنسجم مع الفطرة الإنسانية.

١٠ ـ التعاون في حقل صيانة الوحدة الوطنية

الوحدة الوطنية هدف هام من أهداف إيران وكل بلد من البلدان العربية، فالتعددية القائمة في منطقتنا ـ رغم ما يمكن أن يكون فيها من عطاء إيجابي ـ كانت دائمًا مستهدفة لإثارة النزاعات وتمزيق الوحدة الوطنية.

إيران مثل سائر بلاد العرب فيها تعددية مذهبية ودينية وعرقية، وهي تعددية يمكن أن تكون كما ذكرت مصدر عطاء وثراء، وهكذا كل تنوع يمكن أن يرتفع إلى هذا المستوى إذا توفّرت له البيئة السليمة، وأُبعد عن الحالة التي تعرضه إلى الاستفزاز.

وأعتقد أن جو الحوار هو أسلم طريقة لتوفير البيئة المذكورة

ووقاية هذه البيئة من التعرض للمسيئين.

هذه نماذج من سبل تنشيط التعاون الثقافي بين إيران والعرب، ويمكن أن تأخذ مسارها العلمي دون التأثر بالخلافات السياسية، بل إنها يمكن أن تكون مقدمة للتفاهم السياسي والتعاون الاقتصادي والأمني بين إيران والعرب، لأن التعاون الثقافي يمسّ شغاف القلب، ويرفع العلاقة إلى مستوى إنساني نبيل مترفع عن المصالح الآنية الضيقة.

نشاط المركز في إيران

باختصار نشط المركز داخليًا في الحقول التالية:

١ – تأسيس مكتبة بطهران تعين الباحثين في مجال الآداب والثقافة العربية القديمة والمعاصرة.

٢- تأليف كتب جامعية في تعليم اللغة العربية الحيّة.

٣- تأليف كتب جامعية في الأدب العربي وتاريخه برؤية حضارية.

٤- التعاون مع رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية لاصدار مجلة: ثقافتنا، وهي مجلة عملية محكمة تهتم باستئناف مسيرة الحضارة الإسلامية.

٥- التعاون مع المجمع العالمي للتقريب في إصدار نشرة ثقافة التقريب.

٦- المشاركة في المؤتمرات التقريبية للمجمع العالمي للتقريب

وطرح مسألة التقريب من وجهة نظر حضارية.

٧- نشر كتب في الثقافة والأدب والتذوق الشعري باللغة العربية بالتعاون مع جامعة طهران.

٨- تحقيق كتب تراثية بالتعاون مع مركز أبحاث التراث المخطوط في طهران.

نشاطات المركز على صعيد العالم العربي

١ – التعاون مع جامعة دمشق في إقامة مؤتمرات عن الأدبين العربي والفارسي

٢- التعاون مع جامعة حلب في إقامة مؤتمرات عن المتنبي والسهروردي وشعره بلاط سيف الدولة.

٣- التعاون مع مركز الحضارة للدراسات السياسية في القاهرة لإقامة ندوات بشأن حوار الحضارة.

٤- المشاركة في ندوات أقيمت في الكويت والإمارات العربية المتحدة والجزائر والمملكة العربية السعودية بشأن سعدي، وحافظ، ومولانا جلال الدين، والتصوف والفتوة، والحرمين في الأدب الفارسي.

٥- تأليف ونشر كتب لتعليم اللغة الفارسية للعرب، كان بعضها بالتعاون مع جامعة دمشق.

٦- إقامة ندوة حول المخطوطات العربية في إيران بدمشق.

٧- نشر كتب تحت عنوان: «كتاب الثقافة الإسلامية» تتناول قضايا ثقافية وأدبية وفنية إيرانية – عربية.

٨- إقامة مكتبة متخصصة للباحثين في الشؤون الإيرانية بدمشق بالتعاون مع المستشارية الثقافية الإيرانية في سوريا.

٩- الاتفاق مع بنك التنمية الإسلامية في جدة للتعاون المشترك.

مركز أبحاث وحدة العالم الإسلامي

بدعم من المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية تأسس هذا المركز بموافقة وزارة العلوم والبحوث والتقانة ضمن إطار عمل مراكز البحث العلمي، ويتجه المركز كما في نظامه الأساسي إلى الاستفادة من الطاقات العلمية الجامعية لإجراء بحوث ودراسات أكاديمية في فرعين:

الأول: وحدة الأمة الإسلامية

الثاني: مستقبل الحضارة الإسلامية

الفروع الأول: يستهدف تعميق الدراسات المرتبطة بمسألة التقريب والوحدة في الأمة الإسلامية، ودراسة نقاط الضعف والقوة في مشروع وحدة الأمة الإسلامية، والعوامل السياسية والنفسية والاجتماعية والثقافية والإعلامية التي تعمل على تفكيك الأمة، وسبل مواجهة هذه العوامل.

والفرع الثاني: يتجه إلى دراسة المستقبل الحضاري للأمة عن طريق دراسة الأسباب التي أدّت إلى ازدهارها الحضاري وأسباب

أفولها، والتعمّق في عناصر التفعيل الحضاري في الثقافة، وكيفية التفعيل. وسبل الإقلاع الحضاري واستئناف مسيرة الحضارة الإسلامية بلغة العصر وعلى مستوى متطلبات العصر.

وهذا الفرع أيضًا يرتبط بصميم التقريب والوحدة لأنه يدرس مسألة الإحياء اللازمة والضرورية لعودة الارتباط العضوي بين الأمة، والتغلّب على عوامل الركود الحضاري التي هي عوامل الموت والتفتيت.

خاتمة

إذا كانت الدراسات العلمية المقارنة في الفقه والأصول والعقيدة والتفسير والحديث لها أهميتها بين خواص الأمة، فإن عملية التثقيف ذات أهمية قصوى لجماهير الشعب. إن ما يجري اليوم على الساحة الإسلامية من تحرك معادٍ للتقريب إنّما يستغل عواطف الجماهير التي ترث تركة التعصب القومي والطائفي، من هنا كانت عملية التثقيف العامة ضرورية، لسدّ الثغرات ومنع عمليات الاستفزاز.

إن حوادث هذا العام قد بيّنت للجميع أن الله العزيز القدير قد جهّز في عزم الشعوب و إرادتها قدرةً لا تستطيع أن تقاومها أية قدرة أخرى. الشعوب بما وهبها الله من هذه القوة قادرة أن تغيّر مصيرها وتجعل النصر الإلهي من نصيبها.

الإمام الخامنئي

الحج رؤية عرفانية

حسن علي باقري *

الأفعال العبادية في الإسلام لها صورة ظاهرية وصورة باطنية وأسرار عرفانية مدهشة، ولا يمكن استثناء الحج الذي هو من الأحكام العبادية والسياسية المهمة في الإسلام، وهذه الفريضة لها آثار تنحصر بها فقط وتجعلها متميزة عن سائر الأحكام الإلهية الأخرى.

المسلمون من كل قوم ولون ولسان وعنصر في العالم يجتمعون في مكان واحد، ويرفعون شعارًا موحدًا نحو هدف واحد. فالحج بعث مصغّر في دنيا الإنسان . الأصول والفروع تتجلى في الحج من التوحيد والنبوة والمعاد ومن الصلاة والصوم والجهاد و... ويشتمل أيضًا على أمور أخرى كالخلوة والجلوة والذكر والتفكر والسكوت والعزلة والاجتماع.

فالإنسان والمجتمع المتكامل يرى في الحج ذروة الحب الإلهي. والحج مسرح لعرض القوى المادية والمعنوية للمجتمع الإسلامي وتقييمها.

---

* - كاتب من إيران

الحج كالقرآن كل يأخذ منه حسب فهمه ودركه وقوّته، ونظرًا لأبعاد الحج العرفانية الواسعة وأسراره وصفاته المتعددة نشير في هذا المقام إلى بعض أسرار هذه الفريضة الإسلامية.

أهم مسائل الجانب المعنوي للحج:

باطن الحج يشتمل على مراتب ومقامات فمنها لا يصل إليها إلا الأوحدي من الخلق ومنها ميسرة لجميع أبناء الأمة الإسلامية وفقًا لمراتبهم العلمية والعملية.

منازل الحج:

المنزل الأول: السير من الخلق إلى الحق، القطيعة عن ماسوى الله والوصول إليه ولهذا المنزل مراتب نشير إليها باختصار.

المرتبة الأولى: التوبة

الابتعاد عن شياطين الداخل في وجود الإنسان وطواغيت الخارج والاتجاه نحو الله، فهو ابتعاد عن الصفات الحيوانية نحو الصفات الإنسانية العليا وترك هوى النفس الأمارة بالسوء باتجاه الفضائل الاخلاقية والمراتب المعنوية.

المرتبة الثانية: اليقظة

اليقظة تعني المعرفة بشأن الكعبة والحرم ومنزلتهما، وماوفق له العبد من معرفة القيم الإنسانية بأداء ماوجب عليه من أعمال الحج، وعدم ارتكاب مامنع منه، وهذا يعني أن الله لا يتقبل كل عمل

صادر من الإنسان إلا إذا اقترن بالورع والتقوى : ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[1] و إن الإنسان في محضر الخالق المتعال والنبي الأكرم(ص) والأولياء والصالحين، ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾[2] .

المرتبة الثالثة: التخلية

الوصول إلى هذه المرتبة يستلزم إفراغ القلب من كل الصفات السيئة، وحز جذور تلك الصفات المميتة للقلب كالحسد والبخل والكبر والرياء والكذب والتزوير والنفاق و..

المرتبة الرابعة: التحلية

وبعد إفراغ القلب من الصفات الدنية يأتي دور تحلية القلب بالخصائص الأخلاقية الحميدة والفضائل الإنسانية العالية كحب الخير والاخلاص والتواضع والسخاوة والصدق والرأفة والزهد و... وفي هذه المرحلة يتحول الحج إلى حج إبراهيمي مقبول ويتجه الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى بقلب إبراهيمي حنيف ويقول: ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾[3] . وبهذا يخلص نيته في سفره المعنوي إلى الله ويبتعد عن الدنيا الدنية ولا يرضى الا برضا الله : ﴿الا ابتغاء وجه ربه الاعلى﴾[4] .

---

١ - المائدة/ ٢٧.

٢ - التوبة/ ١٠٥ .

٣ -الانعام/ ٧٩ .

٤ - الليل/ ٢٠ . .

وتأخذ كل أعماله وأقواله صبغة الهية لا يفوقها شيء: ﴿صبغة الله ومن احسن من الله صبغةً﴾[1] .

المرتبة الخامسة: التجلية:

فهذه المرتبة خاصة بالأولياء والأصفياء من عباد الله المخلصين وفي هذا المقام يلفّ الحاج السالك هالة من النور الإلهي: ﴿وجعلنا له نورًا يمشي به في الناس﴾[2] ويصل الإنسان إلى مقام العبودية بلطف من الله، وفي هذه المرتبة يميّز الإنسان القيم العليا عن اضدادها، والطيبين من الخبثاء والحق من الباطل: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا﴾[3] .

وماورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) يختصر كل هذه المنازل المعنوية والروحية للحج حيث قال: «إذا أردت الحج فجرد قلبك لله عزّ وجل من قبل عزمك من كل شاغل وحجب، كل حاجب، وفوّض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع مايظهر من حركاتك وسكناتك، وسلّم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق، واخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك ، فإن من ادعى رضا الله واعتمد على شيء صيره عليه عدوًا ووبالاً، ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله تعالى

---

١ - البقرة/ ١٣٨ .

٢ - الانعام/ ١٢٢.

٣ - الانفال/ ٢٩ .

وتوفيقه، واستعدَّ استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيه (ص) ومايجب عليكم من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاء و إيثار الزاد على دوام الأوقات»[1] .

المنزل الثاني:

السير من الحق في الحق: استمرارية العلاقة بالله مع السعي في الطريق إلى توطيد هذه العلاقة لنيل مقام العبودية ويشتمل هذا المنزل على أعمال:

١.الإحرام وهذا يعني الورود إلى منطقة تحرم على الإنسان أمورًا توجب عزة الحاج في سيره وسلوكه، وليس المحرومية والمنع، ومع هذه الحرمة يستشعر الحاج بالاستغناء عن كثير من أمور تعلق بها في حياته اليومية، وبالاحرام والابتعاد عن هذا التعلق بالأمور الممنوعة يتصف الإنسان بصفة إلهية ألا وهي التشرف بالمحضر الربوبي كما ورد في الحديث: «عبدي أطعني حتى أجعلك مثلي» [2] . حال كونه ملبيًا لبيك اللهم لبيك. والتلبية التي هي من الشعائر العظيمة في الحج، يرفع الحاج صوته بها طاردًا كل الشياطين من حوله، مطيعًا لأمر نبي الرحمة حيث قال: «أتاني جبرئيل فقال لي: إن الله يأمرك

---

١ - مصباح الشريعة الباب/ ٢٢.

٢ - الجواهر السنية / ٣٦١ .

أن تـأمر أصـحابك أن يرفعـوا أصـواتهم بالتلبيـة فإنهـا مـن شـعائر الحج»[1].

٢- الطواف: فهو عمل شابه لما تقوم به الملائكة حول عرش الله: ﴿وترى الملئكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم﴾[2]. فطـواف العبـاد حـول بيـت الله كطـواف الملائكـة حـول العـرش، وتكرر الطواف لترسيخ المحورية الربانية، وقد جاء في الحديث عن ابن عباس: «من طاف بالبيت خمسين مرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[3].

٣- صلاة الطواف: عند ما يصل الطائف إلى مقام العبودية يجب عليه الشكر وصلاة الطواف هي الشكر لله ومعراج المؤمن وقربه لله. استمرارية الشكر تتكامل باستلام الحجر وتقبيله عن جابر: «إن النبي(ص) استلم الحجر فقبله واستلم الركن اليماني فقبل يده»[4].

والاستلام هو خضوع أمام عزة الله ورضا بتقديره كما ورد في الحديث: «واستلم الحجر رضا بقسمته وخضوعًا لعزته»[5].

٤- السعي بين الصفا والمروة: فالسعي عمل يوحي إلينا تلك الذكرى العطرة لشيخ الأنبياء(ع) الذي حاز على مقام العبودية

---

١ - كنزل العمال ٥/ ٣١ .

٢ - الزمر/ ٧٥ .

٣ - كنزل العمال ٥ / ٣٢.

٤ - كنزل العمال ٥/ ١٧٧ .

٥ - نفس المصدر.

والتسليم من الله تعالى كما ورد في القرآن الكريم: ﴿إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين﴾[1] . فالسعي بين الجبلين تجسيد لعمل أمرأة هرولت وسعت رجاءً لرحمة ربها في صحراء الظمأ والغربة سعيًا لسقي طفلها، وعندما أخلصت النية لربها تحقق الأمل الذي مظهره ماء زمزم وواقعيته ماء الحياة. وسعي المؤمنين مجاميع وطوائف بين الصفا والمروة بتلك الحالة يبرز عظمة واقتدار المجتمع الإسلامي، ويرهب المشركين. كما ورد في الحديث: «إنما سعى رسول الله(ص) بالبيت وبين الصفا والمروة ليري المشركين قوته»[2].

ويفر الحاج بهرولته من هوى النفس والغرور الكاذب المفتعل ليصل بروحه وباطنه إلى مقام الحضور واللقيا لحضرة الحق: «وهرول هرولة من هواك وتبريًا من جميع حولك وقوتك»[3] . وأيضًا: «صفّ روحك وسرك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفا»[4] .

٥- التقصير: هو السير من عالم الملكوت إلى عالم الناسوت ومن لذة الروح إلى لذة الجسم ومن الوحدة إلى الكثرة، والتقصير تحليل بعد التحريم: «لولا ان الشياطين يهجمون على قلوب بني آدم لنظر إلى ملكوت السموات والأرض»[5] .

٦- الخروج إلى عرفة: هناك يعترف العبد بذنوبه أمام خالقه

---

١ - البقرة/ ١٣١ .

٢ - سنن الترمذي/ ٣/ ٢٠٨ .

٣ - مصباح الشريعة الباب ٢٢.

٤ - مصباح الشريعة الباب ٢٢.

٥ - البحار ٧٠/ ٥٩ .

«واعترف بالخطايا بعرفات»[1]. ويكتسب المعرفة بالمبدأ والمعاد وبتوحيد الله: «وجدد عهدك لله بوحدانيته»[2]. ومعرفة أن: «ليس في الدار غيره ديار»[3]. وقد جاء في الحديث: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ماقلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له»[4].

فعرفة محطة ينطلق الإنسان فيها من علم اليقين إلى عين اليقين ومن عين اليقين إلى حق اليقين.

٧- الخروج إلى المشعر الحرام: فالمشعر عند الله ذو مرتبة ومقربة وقد جاء توصيفه بإجلال واحترام في القرآن الكريم: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾[5].

فالمطلوب في هذا المكان المقدس وفي أفضل ساعات اليوم (بين الطلوعين) هو ذكر الله فقط فبذكر الله يكتسب الإنسان سبيل العبادة وفي مشعر الحرام يسرى الإيمان من القلب إلى جوارح الإنسان ومشاعره وما نهله الإنسان في عرفات. فذكر الله يرسخ في قلب الإنسان وعينه وأذنه ولسانه وجميع جوارحه لتحصل مشاعرنا على حياة جديدة.

٨- الخروج إلى منى: عندما نزل جبرئيل على إبراهيم قال له:

---

١ - مصباح الشريعة الباب ٢٢.

٢ - مصباح الشريعة الباب ٢٢.

٣ - مصباح الشريعة الباب ٢٢.

٤ - كنزل العمال ٥/ ٦٦ ..

٥ - البقرة/ ١٩٨.

«تمنى يا إبراهيم» فَسُمي هذا المكان بمنى فهي أرض الأمل والرحمة والفضل والكرامة واستجابة الدعاء وطلب سعادة الدنيا والآخرة ويمكن القول: إن أفضل لذات الحج هي لذة عمل العبد لربه في منى.

٩- رمي الجمرات: العبد الذي يروم الوصول إلى مقام القرب عليه أن يقارع طاغوت الباطن والنفس الأمارة بالسوء والطواغيت من شياطين الجن والإنس، فرمي الجمرات الثلاث هي في الواقع طرد طاغوت النفس والذي يشكّل أكبر خطر على الإنسان: «اعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[١]. وطرد شياطين الجن (من إبليس وأعوانه) وشياطين الإنس (أعداء الدين والقرآن والبشرية).

١٠- الاضحية: هي سنة لا تقبل الا من المتقين: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾[٢].

فالتضحية قمة الفداء والإيثار في سبيل المحبوب و إحياء لذكرى النبي إبراهيم (ع) الذي أقدم على تقديم إسماعيل قربانًا لربه وتلبية لأمر ربه: ﴿فلما بلغ معه السعي قال يابني إني أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فلما أسلما وتلِه للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين﴾[٣].

١١- التقصير: وهو تعبير عن إزالة ما تبقّى من الصفات الدنية

---

١ - عدة الداعي/ ص ٢٩٥.

٢ - المائدة/ ٢٧ .

٣ - الصافات/ ١٠٢ - ١٠٥.

و إصلاح القلب من الكبر والرياء.

١٢- طواف النساء: يحل العطر والاستمتاع بالنساء على المحرم بعد الطواف؛ فالسّر قد يكون في اهمية السيطرة على الغرائز بعون من الله حتى و إن بلغ الإنسان مقام العبودية، فهذا يوسف الصديق(ع) عندما أفلح في الامتحان شكرالله على عونه : ﴿و إلاّ تصرف عني كيدهن أصبُ إليهنّ واكن من الجاهلين﴾[١].

١٣- زيارة المدينة:

ومن أهم الاعمال المندوبة بعد اتمام الحج زيارة النبي الأكرم(ص) وتعتبر بعض الأحاديث: أن الحج بدون الزيارة ناقص كما جاء في الحديث: «اتموا برسول الله(ص) إذا خرجتم إلى بيت الله الحرام فإن تركه جفاء»[٢].

١٤- طواف الوداع:

فإن آخر النسك الطواف بالبيت كما جاء في الحديث الشريف: «عن ابن عمر يقول: سمعت عمر بمنى يقول: أيها الناس إن النفر غداً فلا ينصرف احد حتى يطوف البيت فإن آخر النسك الطواف بالبيت»[٣].

المنزل الثالث:

السير من الحق إلى الخلق: يبدأ هذا المنزل بالرجوع من مكة ومدينة إلى الوطن، فالمسؤولية في هذا المنزل أعظم من المنزلين

---

١ - الصافات/ ١٠٢ - ١٠٥.

٢ - وسائل الشيعة ١٠/ ٢٥٥.

٣ - كنزل العمال ٥/ ٢٤٢.

السابقين فهناك كان على الإنسان بناء نفسه والحفاظ عليها، وفي هذا المنزل الخطير عليه بناء الآخرين وهدايتهم، كما هو المأثور عن رسول الله(ص) شيّبتنى سورة هود لمكان قوله: ﴿فاستقم كما امرت و من معك﴾[1]. لأن الله سبحانه وتعالى يأمر باستقامة مَن مع رسول الله(ص) والحاج بالرجوع إلى وطنه مأمور بهداية مَنْ معه من عائلته واقرابائه، وهو يصدع بدور الأنبياء: ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾[2]. فهداية الآخرين أمر خطير ابيضّت منه لحية رسول الله(ص)، فالحاج عليه تعليم الآخرين بكل ما أخذ وتعلم من الحج وترسيخه في قلوب أهل بيته والأقربين فهو أسوة لهم في قوله وعمله وسلوكه، فالهداية الكبرى من الحج هي إحياء الإنسان وهدايته: ﴿من أحياها فكأنما أحيى الناس جميعًا﴾[3].

فالإمام علي (ع) يعتبر الحج امتحانًا صعبًا لتطهير الإنسان وتصفيته حينما يقول: «ابتلاءًا عظيمًا وامتحانًا شديدًا واختبارًا مبينًا وتمحيصًا بليغًا جعله الله سببًا لرحمته»[4]. وجاء أيضا في الحديث الآخر: «واستقم على شروط حجك ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربك وأوجبته إلى يوم القيامة»[5].

---

١ - الدر المنثور ٣/٣٢٠.

٢ - الاحزاب/ ٣٩ .

٣ - المائدة/ ٣٢.

٤ - الخطبة القاصعة/ ١٩٢.

٥ - مصباح الشريعة الباب/ ٢٢.

الحج فى الشعر الفارسي

يكاد كل الشعراء الإيرانيين القدماء قد ذكروا مكة والمدينة والمشاعر ومناسك الحج في أشعارهم.

وأهم المحاور التي تناولها الشعر الفارسي:

معالم الحرمين الشريفين، والخلفية التاريخية لهذه المعالم، وظاهر مناسك الحج ومحتوى هذه المناسك، والمعاني العرفانية للحج.

الكعبة وما يتعلق بها

الكعبة في الشعر الفارسي مظهر جلال وجمال، تغزّل الشعراء بقامتها وكسوتها وحجرها الأسود وعطرها وبابها، وحلقة بابها.

وفي حديث الشعراء عن الكعبة تركيز على الصفة الشعبية للكعبة أي أنها «للناس». عبارات: «كعبه ملت» و «كعبه خلق» و«كعبه جمهور» تتكرر في الشعر الفارسي، كقول رشيد الدين الوطواط:

خجسته خاك جناب تو قبله آفاق ستوده صدر رفيع تو كعبه جمهور

فأرض الممدوح المباركة قبلة الآفاق، وصدره الرفيع كعبة الجمهور.

وصفة الأمن لها معنى عميق لدى الحديث عن الكعبة، فالسائرون على طريق الحقّ يسلكون طريق ذات الشوكة المليء بالمخاوف، لكنهم يشعرون بالأمن حين تنشدّ أنظارهم إلى المقصد السامي الذي يتجهون اليه، مثل الحاج الذي يسلك الفجاج الخطرة، لكنه يشعر بالراحة حين يرنو ببصره إلى البيت الآمن الذي يقصده . يقول خاقاني:

سالكان راست ره باديه دهليز خطر لكن ايوان امان كعبه عليا بينند

أي: إن السالكين للطريق المستقيم (و إن كانوا يسيرون) في بادية دهليز الخطر، لكنهم يرون أمامهم إيوان كعبة الأمان السامية.

ولم يترك الشعراء الفرس مظهرًا من مظاهر الكعبة إلاّ ذكروه. من ذلك أركانها الأربعة التي يصفها الخاقاني بأنها توائم أربعة واقفة لخدمة الطائفين:

بيني حجرش بلال كردار بيرون سيه و درون پرانوار
اورا سه برادر اتفاقي شامي و يماني وعراقي
زانگه زمادران بزادند هرچار به خدمت ايستادند

يدعو إلى التأمل في الركن الأسود حيث حجره كبلال ظاهره أسود وباطنه مليء بالأنوار. وله ثلاثة إخوة: شامي و يماني وعراقي، والأربعة منذ ولادتهم واقفون للخدمة.

عظمة الكعبة وشرفها ومقامها واستجابة الدعاء والتضرّع عندها

يكثر في الشعر الفارسي غير أن الشاعر الإيراني لا ينسى مكانة الإنسان وشرفه في هذا الكون فهو يقول للكعبة: إذا كان الحبيب قد قال مرة واحدة: «بيتي» فقد قال لي سبعين مرة: «ياعبدي» يقول عطار:

گر تورا يك بار «بيتي» گفت يار گفت «يا عبدي» مرا هفتاد بار

ويرد في الشعر الفارسي ذكر «الحطيم» و«الملتزم» و«مقام إبراهيم» و«حجر إسماعيل» والمستجار» و«الميزاب» وهو المسمى بالفارسية «ناودان» يقول جامي:

حرم وحلّ وبيت وركن وحطيم ناودان ومقام ابراهيم

وأما زمزم فلها مكانتها في الشعر الفارسي، فهي المنهل الذي يروي عطش الظمأى، وهي الماء الذي يطهّر من كل الأدناس، لذلك كانت مثل ثغر الحبيب، ومثل حبر العلماء العارفين الذي يطهّر القلوب، ومثل يد الممدوح التي تفيض بالرحمة على الناس...

ويكثر في الشعر الفارسي وصف الكعبة بأنها القلب لكل آفاق العالم، وللقلب معناه الذي لا يخفى، وبأنها الوردة المتفتحة دائمًا في بستان العالم، تشعّ بنورها وعطرها في الأرجاء دون أن يعتريها ذبول، فهي في ربيع دائم:

يقول محيي لاري:

كعبه ميندار زآب و گل است در تن آفاق به جاي دل است

تازه گُلي رسته به باغ جهان روشن از آن چشم و چراغ جهان

ديـر نپائيـد گـل اين مرغزار تـــازه شـود بـــاز بـه هـر نوبهار[1]

ـ لا تظنّنّ أن الكعبة من ماء وطين/ إنها في جسم الآفاق بمثابة القلب.

ـ إنها وردة تتدفق بالحياة في بستان العالم/ فتضيء دجى العالم وتنير الطريق.

ـ ولا يؤثر على وردة هذه المرجة مرور الأيام/ إذ تتجدّد دائمًا بكل ربيع جديد.

الحرم ومايتعلق به الحرم في الشعر الفارسي هو المكان الذي يدخل فيه الإنسان حريم الله، ولايمكن أن يدخله إلاّ من خرج من كلّ مايشدّه بخارج هذا الحريم من ذاتيات وأنانيات.

يقول الشاعر عراقي:

بـه طـواف كعبـه رفـتم بـه حـرم رهـم ندادنـد
كه تو در برون چه كردي كه درون خانه آيي

أي: ذهبت لطواف الكعبة فلم يسحوا لي أن أدخل الحرم/ إذ (قالو لي): ماذا فعلت خارج البيت كي تطمع أن تدخل فيه؟!

ويقول سيف فرغاني:

تـــازخود بيـــرون نيـــايي ره نيـــابي در حـــرم
ورچه همچون كعبه باشي سال و مه اندرحجاز

أي: إذا لم تخرج من ذاتك لا تجد طريقًا إلى الحرم/ حتى ولو كنت

١- محيي لاري، فتوح الحرمين، ص ٤٠.

كالكعبة الباقية سنين وأشهرًا في الحجاز.

وبالمناسبة تذكر بعض كتب الأدب الفارسي أن حدود الحرم تصنع شكلاً يشبه القلب، والكعبة داخله تشبه القلب أيضًا، فهي قلب داخل قلب. والقلب يضخّ الدم والحياة في البدن، والكعبة والحرم كذلك، هما مركز ضخّ الحياة في العالم الإسلامي، بل لوقوعهما في مركز الأرض يعتبران مركز حياة البشرية[1].

الخلفية التاريخية لهذه المعالم

كل مَعَلم من معالم الحرمين الشريفين يربط الإنسان بتاريخ الإسلام وأبعد منه بتاريخ الأنبياء من لدن آدم حتى بعثة خاتم الأنبياء. فالشاعر الفارسي يرى زمزم مقرونه بسعي هاجر، ويرى الكعبة مقرونة ببناء إبراهيم و إسماعيل وأذان إبراهيم بالحج، وبعام الفيل وهجوم إبرهة، ونصب الحجر الأسود بيد الصادق الأمين (ص) وتطهير البيت من الأصنام.

يذكر محيي لاري بناء الكعبة بيد إبراهيم و إسماعيل بلغة تبين الخلفية الإيمانية لهذا البناء الكريم يقول:

چون كه فرس راند به ميدان خليل　　خانه بنا كرد به امر جليل

١- محمد شجاعي، حج در آيينه شعر فارسي، چاپ اول، مركز تحقيقات حج، ص١٥٨.

خـود شـده مشـغول بـه کـار بنـا دسـت بـه کـار و بـه زبـان ربّنـا
شیره جان آب و گلش از دل است کار دل اینست نه کار گل است
داد سماعیـل مـدد کـاریـش کـرد خـداونـد جهـان یـاریش

ـ مـا إن دخـل الخليـل الميـدان بفرسـه/ حتـى بنـى البيـت بـأمر الـرب الجليل.

ـ باشر بنفسه عمل البناء/ كان يعمل بيده ويلهج بالدعاء بلسانه.

ـ كان ماؤه عصارة الروح وطينه من مادة القلب/ فعمله كان عمل القلب لا عمل الطين.

ـ و إسماعيل كان مددًا لعمله/ شاء الله أن يكون معينه.

ويقول مولانا جلال الدين الرومي متذكرًا هجوم إبرهة الذي شاء أن يذلّ الكعبة وشاء الله أن يعزّها:

ابرهـــه بـــا پيـــل بهـــر ذل بيـــت آمـده تـا افكنـد حـى را چـو ميت
تـا حـريم كعبـه را ويـران كنـد جمله را زان جاي سرگردان كند..
عـين سـعيش عـزّت كعبـه شـده موجـــب اعـــزاز آن بيـــت آمـــده
مكيان را عـز يكـى بـد صد شده تا قيامت عزشـان ممتـد شـده

أي: ـ جاء إبرهة بالفيل من أجل إذلال البيت ومن أجل القضاء على حياته.

ـ من أجل أن يهدم حريم الكعبة ويردع الجميع عن ذلك المكان.

ـ نفس سعيه صار عزًّا للكعبة، وأدّى إلى إعزاز ذلك البيت.

ـ والمكيون كان عزّهم واحدًا وأصبح مائة عزّ / وامتد عزّهم إلى

يوم القيامة.

وتأكيد المولوي على عزّ الكعبة له دلالته على أن عزّ المسلمين يستمد من عزّها.

محتوى مناسك الحج

مناسك الحج مثل سائر العبادات لها شكل ظاهر، والمسلم لابدّ أن يعرف ما يعنيه هذا الشكل الظاهر حتى تؤدّي العبادة أغراضها، فالركوع ليس انحناءًا فحسب، بل إنه يرمز إلى خضوع الإنسان لربّ العالمين، وهكذا السجود، وسائر أركان الصلاة لها معنى لابدّ أن يفهمه الإنسان كي تؤدي الصلاة دورها في النهي عن الفحشاء والمنكر، والاّ كانت نقرًا كنقر الغراب.

وهكذا مناسك الحج لها معنى ومحتوى لابدّ أن يفهمه الإنسان كي يؤدي الحج دوره في تطهير الإنسان من كل مايعيق حركته التكاملية في الحياة، و إلاّ كان الحجاج غثاءً كُغثاء السيل كما في النصوص الدينية.

والشعر الفارسي يهتمّ بهذه المسألة، ويرى أن من يحجّ ولم يفهم معنى مناسكه فلم يحجّ. وأطول قصيدة تضمّنت هذا المفهوم هي لناصر خسرو، يستقبل فيها صديقًا عاد من الحج ويسأله عن كل واحد من المناسك ومعانيها، وحين يجدي أنّ الصديق حج ولم يعرف تلك المعاني، يقول له: إنك إذن لم تحجّ، و إذا عزمت على

الحج ثانية فاعمل ما علّمتك إيّاه.

يقول ناصر خسرو:

حاجیـــان آمدنـــد بـــا تعظـــیم — شـــاکر از رحمـــت خـــداي رحـــیم..
مـــر مـــرا در میـــان قافلـــه بـــود — دوستی مخلص و عزیز و کریم...
گفـتم او را بگـوی چـون رسـتی — زین سفر کردن به رنج و به بیم..
شـاد گشـتم بدانکـه حـج کـردی — چون تو کس نیست اندر این اقلیم
بـــازگو تـــا چگونـــه داشـــته ای — حرمـــت آن بزرگـــوار حـــریم
چـون همی خواستی گرفت احرام — چـه نیـت کـردی انـدر آن تحـریم
جملـه بـر خـود حـرام کـرده بـدی — هرچـه مـادون کردکـار عظـیم
گفـت: نـی! گفـتمش زدی لبیّـك — از ســـر علـــم و ز ســـر تعظـــیم
مـی شـنید نـدای حـق و جـواب — بـــاز دادی چنانکـــه داد کلـــیم؟
گفت: نی! گفتمش چو در عرفات — ایســـتادی و یـــافتی تقـــدیم
عـارف حـق شـدی و منکـر خـویش — بـه تـو از معرفـت رسـید نسـیم؟
گفـت: نـی! گفـتمش چـو مرفتی — در حـرم همچـو اهـل کهـف و رقـیم
ایمـن از شـرّ نفـس خـود بـودی — در غـم حرقـت و عـذاب جحـیم؟
گفت: نی! گفتمش چو سنگ جمار — همـــی انـــداختي بـــه دیـــو رجـــیم
از خـــود انـــداختی بـــرون یکســـو — همـــه عـــادات و فعلهـــای ذمـــیم؟
گفت: نی! گفتمش چو مکشتی — گوســـفند از پـــي اســـیر و یتـــیم
قـــرب حـــق دیـــدی اوّل و کـــردی — قتـــل و قربـــان نفـــس دون لئـــیم؟

گفت: نی! گفتمش چو گشتی تو | مطّلع بر مقام ابراهیم
کردی از صدق و اعتقاد یقین | خویشی خویش را به حق تسلیم؟
گفت: نی! گفتمش به وقت طواف | که دویدی به هروله چو ظلیم
از طواف همه ملائکتان | یاد کردی به گرد عرش عظیم؟
گفت: نی! گفتمش چو کردی سعی | از صفا سوی مروه بر تقسیم
دیدی اندر صفای خود کونین | شد دلت فارغ از جحیم و نعیم؟
گفت: نی! گفتمش چو گشتی باز | مانده از هجر کعبه دل به دو نیم
کردی آنجا به گور مر خودرا | همچنانی کنون که گشته رمیم؟
گفت: از این باب هرچه گفتی تو | من ندانسته ام صحیح و سقیم
گفتم: ای دوست پس نکردی حج | نشدی در مقام محو مقیم
رفته ومکّه دیده آمده باز | محنت بادیه خریده به سیم
گر تو خواهي که حج کنی پس از این | این چنین کن که کردمت تعلیم[1]

الترجمة - عاد الحجاج مقرونين بالتعظيم/شاكرين رحمة الربّ الرحيم.

- وكان لي بين القافلة /صديق مخلص وعزيز وكريم.
- قلت له: أخبرني إذ نجوت / في هذا السفر من المشاق والمخاوف.
- أنا مسرور إذ أديت الحج / إذ لا مثيل لك في هذا الإقليم.
- أخبرني: كيف راعيت/ حرمة ذلك الحريم العظيم؟

١- ديوان ناصر خسرو، تصحيح حاجی سيد نصر الله تقوی، ص ٣٠١.

ـ حين هممت بالإحرام / ماذا نويت في ذلك التحريم؟

ـ هل حرّمت على نفسك كاملاً/ كلّ شيء هو مادون العمل العظيم؟

ـ قال :لا ، قلت: هل لبيت / عن تعّمق في العلم وتعمّق في التعظيم؟

ـ هل كنت تسمع نداء الحق وجوابه/ كما كان حال الكليم؟

ـ قال: لا، قلت، إذ أنت في عرفات / وقفت، ونلت التقديم.

ـ هل أصبحت عارفًا للحق ومنكرا لذاتك / هل هبَّ عليك من المعرفة نسيم؟

ـ قال: لا، قلت، حينما توجهت / إلى الحرم مثل أهل الكهف والرقيم.

ـ هل كنت في مأمن من شرّ نفسِكَ / ومن الهموم المحرقة وعذاب الجحيم؟

ـ قال: لا، قلت: حين رَمَيت صخور الجمار / باتجاه الشيطان الرجيم.

ـ هل ألقيت من نفسك خارجًا /كل عادة وفعل ذميم؟

ـ قال: لا، قلت إذ كنت تذبَحُ / الخروف من أجل الأسير واليتيم.

ـ هل رأيت أولاً قرب الحق / وقتلت بالقربان النفس الوضيع اللئيم؟

ـ قال : لا، قلت إذ أصبحت / مطلعًا على مقام إبراهيم.

ـ هل عن صدق و اعتقاد ويقين / جعلت نفسك للحق في حالة تسليم؟

ـ قال: لا، قلت في وقت الطواف / إذ ركضت مهرولاً كالظليم.

ـ هل ذكرت في الطواف كل / الملائكة التي تطوف حول العرش العظيم؟

ـ قال: لا، قلت حين سعيت / من الصفا إلى المروة على التقسيم.

.هل رأيت داخل صفاء نفسك الكونين / هل فرغ قلبك من الجحيم والنعيم؟

ـ قال : لا، قلت إنك إذ تركت / الكعبة فهل أصبح قلبك لهجرها منفطرًا؟

ـ هل الآن وقد عدت / عادت ذاتيتك ميتة كالرميم؟

ـ قال: ماقُلْتَه في هذا الباب / فأنا لا أميّز فيه الصحيح من السقيم.

.قلت: يا صديقي إذن أنت لم تحجّ/ ولم تصبح في المقام كالمعدوم المقيم.

ـ ذهبت ورأيت مكة وعدت / واشتريت محنة البادية بالدراهيم.

ـ إذا أردت أن تحجّ بعد هذا / فاعمل مثل هذاالذي قدمت لك من تعليم.

الحج والحرم المكي
في رحلات الحج الفارسيّة

الحديث عن الحج والحرم المكي في الآداب الفارسيّة هو حديثٌ عن الثقافة التي جعلت من الإيرانيين جزءًا من هذه الأمة الإسلاميّة، وعن مكونات هذه الثقافة، وعن دور مكّة في هذا التكوين الثقافي، ثم دورها في الدفع الحضاري أو الاقلاع الحضاري ـ كما يسميه مالك بن نبي ـ لهذه الأمة.

إنّ الثقافة هي المزيج النظري والعملي لتكوين الإنسان، وهذا المزيج يدفع الجماعة البشرية إلى سلّم الارتقاء الحضاري بقدر مافيه من طاقة وقوّة دفع وقدرة على الاستمرار.

حركة الإنسان المسلم نحو مكّة .. هي حركة نحو «الله» بكل ما تتطلبه هذه الحركة من تغلب على الذات وعلى انشداد الإنسان بالصغائر من مال ومتاع.. ومناسك الحج فيها توثيق للعلاقة بالمثل الأعلى المطلق سبحانه، بجميع ما يتضمنه هذا المثل الأعلى من علم وسعة ورحمة وجلال وجمال. واجتماع الحجّ فيه أعظم ما

تتطلبه الحركة الحضارية من معرفة وتعارف وتركيز للقيم الإنسانية التي تتعالى على اختلافات اللون واللغة والجنس، وترفض التمييز الاجتماعي والطبقي.

غاية الإسلام هو حركة البشرية نحو الله، وليس بين البشر والله سبحانه فاصلة جغرافية يتحركون باتجاهها، بل هي حركة تكامل لتحقيق مظاهر الاستخلاف، أي إنها حركة نحو كل صفات الله من قوّة وعزّة وكرامة وعلم وسعة ورحمة.. وهذه هي الحركة الحضارية.. والحركة نحو مكّة تستوعب بشكل حركي عملي كل رموز هذا المخزون الثقافي اللازم للحركة الحضارية.

وقد يكون هذا ـ والله أعلم ـ هو سبب تسمية مكة بأم القرى.. لأن القرية هي المدينة, والمدينة هي مظهر التمدّن والحضارة، والأم هي التي تغذّي الأبناء وتمدّهم بأسباب النموّ والنشوء والتكامل.

الحج والحرم في الآداب الفارسيّة يعبّر عن انشداد الأمة بمصدر حركتها الحضارية .. بعزّتها وكرامتها وتحرّرها من قيود الذاتية ومن ظلمات الحمأ المسنون، و إخراجها إلى نور نفخة ربّ العالمين.

نقتصر في هذا المقال على الرحلات، لنجد أن رحلات الحج هي أهمّ ماكُتب في أدب الرحلات باللغة الفارسية. وكتّاب الرحلات فيهم الأدباء والأمراء والمفكرون والصحفيون. وفيها يضمّنون أهمّ مرحلة من مراحل حياتهم، وأجمل وأعمق تحوّل روحيّ مرّ بهم. ويعبّرون عن مشاعرهم تجاه حركات المناسك ورموزها وتجاه هذا

الاندماج في المجاميع البشرية التي لا يجمعها إلاّ الانتساب إلى الدين الحنيف، ولا يوحّد وجودها في موسم الحج إلاّ الحركة نحو الله سبحانه.

الرحلات

١ـ رحلة ناصر خسرو، عزم على الحج سنة ٤٢٧هـ، واستغرقت رحلته ٧ سنوات، وكتب أول رحلة في اللغة الفارسية. وهو مؤسس أدب الرحلات في هذه اللغة. اكتفى في حديثه عن الحج بوصف ظاهر المناسك ولم يتعرّض لمحتواها.

يصف وصوله جدّة، وما لقيه من استقبال أميرها تاج المعالي بن أبي الفتوح، ثم يصف المدينة، ويصف مكة والمسجد الحرام والسعي، يتحدث عن أبنية كان الخلفاء العباسيون قد أقاموها في المدينة وأوشكت على الخراب، وعن ملوحة ماء مكة، وعن الماء العذب الذي أتى به أمير عدن من المياه الجوفية إلى مكة، ثم يفصّل الحديث عن الكعبة وأبعادها وأركانها وملحقاتها(١)، ويصف المدينة المنورة.

ولناصر خسرو أربعة أسفار إلى مكة له في كلٍّ منها حديث وصفي عن أماكن الحج. وفي أحد أسفاره يشير إلى ما أصاب

١- ناصر خسرو، سفرنامه ناصر خسرو قبادياني مروزي، باحواشي وتعليقات دكتر محمد اديب سياقي ، چاپ دوّم ، ١٣٦٣هـ. ش ، كتابفروشي زوار، ص ١١٨-١١٩.

الناس من قحط في تلك السنة، مما جعل الناس بسبب الجوع والفاقة يفرّون من الحجاز.

٢- رحلة مكة، كتبها سلطان محمد سيف الدولة، من أمراء الأسرة القاجارية ومن أبناء فتح علي شاه القاجاري. أدّى فريضة الحج سنة ١٢٧٩هـ. تحدّث فيها عن سفره الذي بدأه من طهران ثم بحر الخزر ثم تفليس واستانبول ومكة، وعاد عن طريق العراق وجنوب إيران إلى طهران.

سمّى كتابه «سفرنامه مكه» = رحلة مكة، وفيها يتحدث عن الأوضاع الجغرافية والسياسية والاجتماعية لما مرّ به من بلاد ومدن. ومما يلفت النظر في حديثة عن مكة إشارته العابرة إلى مايجاور المسجد الحرام من مدارس[1].

٣- رحلة فراهاني: كتبها الميرزا محمد حسن فراهاني، كان من الملازمين لناصر الدين شاه القاجاري، أدّى فريضة الحج مرتين كانت الثانية سنة ١٣٠٢هـ، وكتب عنها بأمر ناصر الدين شاه بالتفصيل . حج مُخِفًّا لأنه «نجى المخفّون وهلَكَ المثقلون» كما يقول.

يقول: إن زاده في سفره كان نصيحة أسداها إليه شيخ إذ قال له: «لا يمكن أن تصل إلى السعادة إذا كان همك أنا ونحن».

١- سفرنامه سيف الدولة، معروف به سفرنامه مكة، تصحيح وتحشيه على اكبر خداپرست، چاپ اوّل، ١٣٦٤ هـ. ش، نشر ني، ص١٣٢.

في إشارة إلى ضرورة التخلص من الذاتية والأنانية للوصول إلى مراتب الكمال.

ومن الملفت في هذه الرحلة حديثه عن القنصل الإيراني في جدة، وهو من المفروض أن يكون حاميًا لمصالح الحجاج الإيرانيين، لكنه كان يفرض عليهم أتاوة يملأ بها جيبه.

ويذكر أيضًا زيارته لقبر حواء في جدّة وطوله أكثر من مائة وخمسين ذراعًا. وكان متولّي القبر يطلب من الحجاج بكل حماقة أن يقبّلوا سرّة أمهم حواء[1]!

والكاتب كان له ذوق شعري، ومما أنشده في هذه الرحلة:

در طي ره عشــق اگر رنج كشيديـم
المنّة لله كه بــه مقصـود رسيديم
گفتند بجز سنگ وگِلي بيش نباشــد
ما در دل هر سنگ و گلي يار بديديم

الترجمة: ـ إنْ كنّا عانينا من المشقة على طــريق العشق / فالمنّة لله أن قد وصلنا إلى المقصود.

ـ قالوا ليست الكعبة سوى مجموعة أحجار وطين/ نحن في قلب كل حجر ولبنة رأينا الحبيب.

ويشير في كتابه إلى حادثة تاريخية دون أن يذكر لها مصدرًا، وهي أن أهالي مكة كانوا يحتفلون ويبتهجون بيوم العاشر من

١- ميرزا محمد حسين فراهاني، سفرنامه ميرزا محمد حسن فراهاني، به كوشش مسعود گلزاري، چاپ اول ١٣٦٢هـ. ش، انتشارات فردوسي، ص ٤.

محرم لرواية تذكر أن سفينة نوح استوت على الجوديّ في ذلك اليوم، والشريف عبد المطلب وبعده الشريف عبدالله والشريف عون منعوا هذه الاحتفالات احتراما لذكرى مقتل الحسين في هذا اليوم.

٤- تحفة الحرمين: اسم كتاب رحلة دوّنه محمد معصوم من أبناء التجار الإيرانيين، حج سنة ١٣٠٥ هـ، والكاتب عُرف بمنزلته العرفانية والدينية، وكان يحمل من ناصر الدين شاه لقب «نايب الصدر» ورثه عن أبيه. سافر عن طريق قزوين وجيلان وبادكوبه وباطوم والقسطنطينية والاسكندرية ثم أمّ الجزيرة العربية.

والكاتب يشكو أيضًا من الأتاوات التي يقبضها القنصل الإيراني والسفير الإيراني في الحجاز، ويقول: «تعاهد شريف مكة والقائم مقام والقنصل والمطوّف والمقدّم والجمّال والعكام والحمله دار وأمير الجبل والسفير الكبير على إفراغ جيوب الزوّار...»[١].

ويذكر تفاصيل فساد الجهاز الدبلوماسي الإيراني في الخارج وهكذا الفساد المالي للمتولين على شؤون الحرمين آنئذ. كما يتحدث عن جهل بعض الحجاج، وعن تعمّد الكذب في شهادة رؤية الهلال من أجل أن يكون يوم عرفة في يوم الجمعة، وأن يكون ذلك الحج حجًا أكبر[٢].

وكتاب الرحلة هذا يعكس جانبًا من الوضع المتردي الذي آل

١- محمد معصوم، تحفة الحرمين، سفرنامه نايب الصدر شيرازي در زيارت مكة و.. چاپ اول، ١٣٦٢هـ. ش، ص ٤٦.

٢- تحفة الحرمين ، ص ١٧٤.

إليه العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر.

٥- رحلة الحج، وصف لرحلة قام بها ميرزا علي خان أمين الدولة بعد عزله عن الصدارة (أي رآسة الوزراء) سنة ١٣١٦هـ. إذ أحسّ أمين الدولة بأن مؤامرة ستدبّر لقتله بعد إقصائه من منصبه، كما هو شأن مَن قبله من المقصيين عن رآسة الحكومة. وقد يكون ذلك هو سبب عزمه على سفر الحج، ويبدو أن مظفر الدين شاه القاجاري قد عارض هذا السفر بسبب أخبار الوباء في مكة ذلك العام، لكنّ وساطات نساء البلاط (كنّته كانت بنت الشاه) وفّرت له إجازة السفر: كتب هذه الرحلة مجد الملك أخو أمين الدولة.

يظهر أن أمين الدولة كان يودّ أن لا تحاط زيارته بمراسيم رسميّة، لكنه كان يحظى باستقبال رسمي أينما حلّ. وحين استقبله قنصل جدّه قال له أمين الدولة:

«الوصول إلى الله سبحانه يتطلب رِجلاً حافيًا، وقلبًا صافيًا، لقد هربت من المظاهر وأردت أن أحجّ مثل رجل عادي، من الذي أخبرك بقدومي وكيف عرف الوالي بسفري فأغرقتموني بالتشريفات والمراسيم؟!»[1].

يتحدث أمين الدولة عن مشاهداته، ويكثر التأفف من قاذورات منى والذبح فيها إلى جوار الخيام. ومع أنه كان يرغب أن يكون كسائر الناس، لكنه كان يتعامل مع الأمور تعامل الصدر

١- سفرنامه امين الدولة، حاجي ميرزا علي خان صدر أعظم، با مقدمه دكتر علي أمين، به كوشش إسلام كاظمية، انتشارات نوس، ص١٧٥.

والحاكم.

٦- رحلة التشرف بمكة المكرمة، رحلة حول العالم طاف فيها ميرزا علي أصغر خان أتابك سنة ١٣٢١هـ. يذكر صاحب الرحلة باعثه عليها فيقول: «لقد لُمت نفسي كثيرًا حين أقدمت للمرة الثانية على الاقتراض من الخارج لإيران، فقد رأيت بأم عيني مانزل بالأموال المقترضة في المرة الأولى. والآن إذ دُعيت إلى الاقتراض للمرة الثالثة، فإني هربًا من هذه العملية وفقت إجبارًا لزيارة بيت الله»[١].

كانت السفرة عن طريق ميناء أنزلي على بحر قزوين، بادكوبة، موسكو، سيبريا، قبچاق، بحيرة بايكال، منشوريا، شينغ يانغ، بكين، شانغهاي، ميناء ناكاساكي، كيوتو، طوكيو، أمريكا، فرانسا، إيطاليا، القاهرة، جدة، مكة، المدينة، دمشق، بعلبك، بيروت، بيت المقدس، ثم العودة إلى إيران عن طريق اسطنبول.

يتحدث عن أدائه لمناسك الحج، ويذكر القوافل المحملة بالهدايا التي كانت تأتي إلى أرض الحرمين الشريفين من الشام ومصر، ويصف البيت الحرام من الداخل والخارج، ويأسف لما رآه من مظاهر الفساد جوار المسجد الحرام[٢].

ويضمن رحلته بعض الأبيات التي تستثير روح التأمل والعرفان في تلك البقاع الطاهرة.

١- سفرنامه مكة، مهدي قلي خان هدايت (مخبر السلطنة) به كوشش دكتر سيد محمد دبير سياقي، تهران، چاپ اوّل ١٣٦٨هـ. ش، انتشارات تيراژه..

٢- سفرنامه مكة، ص ٢٥٨.

٧- رسالة في ذكريات سفر الحج، للحاج سلطان حسين تابنده الگنابادي (رضا عليشاه). كانت رحلته سنة ١٣٢٤هـ. سافر بالطائرة من طهران إلى البصرة، وأحرم بالنذر منها. يتحدث فيها عن أهمية فريضة الحج في وحدة المسلمين وتزكيتهم. ويفسّر بعض مناسك الحج وفق رؤية الطريقة الگنابادية التي يترأسها. ويشير تابنده إلى اختلاف يوم العيد بين إيران والسعودية ويذكر عمل بعض الجهّال في الالتزام باعلان إيران، ويذمّ هذا العمل، إذ هو خطأ من الناحية الدينية والاجتماعية والعلمية كما يقول[1].

ويرى أن الحج يمكن تلخيصه بعبارة واحدة وهي: «قتل النفس الامّارة بالسوء».

٨- إلى الله نتّجه بالحج، لآية الله السيد محمود الطالقاني، ويظهر أنه حجّ في نفس السنة التي حجّ فيها آية الله الكاشاني (١٣٧٢هـ) يتحدث عن أعمال المناسك ومحتواها، وأينما ألقى نظره على مَعْلَم من معالم أرض الحرمين الشريفين تعود به الذكرى إلى تاريخ صدر الإسلام فيكتب ما يتعلّق بذلك المعلم من حوادث.

يرى السيد الطالقاني أن حج المسلمين تبلور لواقعهم بكل مافيه من إيجابيات وسلبيات، يذكر بعض سلبيات الإيرانيين في الحج كعدم اهتمامهم بأداء الصلاة جماعة، ويذكر بعض سلبيات

١- رسالة خاطرات سفر حج، حاج سلطان حسن تابنده گنابادي (رضا عليشاه) ط٢، ١٣٥٧هـ. ش، چاپ ديبا.

غيرهم من المسلمين. ويكثر في كتابه من الحديث عن البعد الاجتماعي للحج[1].

٩- ذكريات سفر الحج: كتاب فيه رحلتان لأب ولابنه، الأب أحمد هدايتي، والابن الدكتور محمد علي هدايتي. ويقارن الابن بين سفر والده وسفره ذاكرًا الفرق الكبير في السفرين من حيث اليسر والتسهيل.

فزيارة والده استغرقت عشرة أشهر ونصف الشهر، بينما استغرقت زيارته أسبوعين.

يذكر الأب أنه حين عاد إلى جدّه بعد المناسك، استغل فرصة الانتظار فاقتنى كتاب «الإعلام بأعلام بيت الله الحرام» فطالعه وترجم قسمًا منه إلى الفارسية. والابن يكثر في رحلته من الأسف على جهل بعض الحجاج بفريضة الحج ومحتوى مناسكه[2].

١٠- خَسي در ميقات أو «قشّة في الميقات» اسم كتاب لجلال آل أحمد دوّن فيه ذكريات سفره إلى الحج سنة ١٣٨٤هـ. وفيه سلط هذا الأديب البارع نظره على جزئيات وتفاصيل بعض الأمور، مما لا يتاح لغير الأديب الناقد أن يراها.

في بداية سفره يلقي نظرة على ما أعدّه من أدوية وعقاقير لسلامته وصحته، وبنبرة حادّة يلوم نفسه فيقول: «يا رجل! إياك

١- انظر: به سوى خدا مي رويم با حج، آية الله سيد محمود طالقاني.

٢- خاطرات سفر حج، احمد هدايتي، محمد علي هدايتي، طهران ١٣٤٣هـ. چاپخانه حيدري، ص ٢٣٠.

أخاطب! لقد جئت إلى الحج، ومع ذلك فأنت ترسف إلى هذا الحدّ في قيود ذاتك»؟!

ثم يتحدث عن عظمة هذه الفريضة وعن ضرورة الاهتمام بتنظيمها واستثمارها. يقابل الناس العاديين ويتحدث إليهم، ويذكر نماذج من الحجاج الإيرانيين، ويستاء مما يراه من بعض رجال الدين الذين يصطحبون القوافل.

يرى نفسه مُنْشَدًّا إلى تاريخ عريق للأرض المقدسة، والى سيول بشرية من أمة الإسلام، ويعبّر عن مشاعره في كل منسك ومشعر، يرى نفسه في السعي أنه مقابل عظمة لامتناهية ويحسّ بنفسه وكأنه قشّة على سطح البحر[1].

١١- ذكريات زيارة بيت الله والعتبات العالية في خدمة المرشد، كاتب هذه الرحلة محمد رضاخاني، حج سنة ١٣٨٧ مع الحاج سلطان حسين تابنده الگنابادي (رضا عليشاه)، الأسلوب أدبي جميل تتخلله أبيات من الشعر. يتحدث عن مكتبة الحرم النبوي وعن الصفّة ويرى أن الصوفي بحسب أحد الاقوال من «الصُفّة».

وباعتباره من السالكين في إحدى الطرق الصوفية ينقل بعض أسرار الحج عن كتاب «أسرار العبادة» لشاه نعمة الله ولي، ويستشهد بالقرآن والسنّة. يذكر ظاهر المناسك وباطنها، وتاريخ

١- جلال آل احمد، خسي در ميقات، چاپ دوم ١٣٧٣هـ . ش . انتشارات فردوسي، ص٩١-٩٣.

بعض معالم الحرمين الشريفين[1].

والكاتب حجّ للمرّة الثالثة مع عدد من الدراويش بمعيّة حاج سلطان حسين تابنده سنة ١٣٩١هـ ووصف ما تشهد السعودية من حركة عمرانية سريعة بفضل الرخاء الاقتصادي، في كتاب «قصّاد السفر الروحي»[2].

١٢- رحلة الحج ، كتبها جواد مجابي، مراسل صحيفة اطلاعات حج سنة ١٣٩٢هـ، وكانت إيران تعيش ظروف صراع بين الاتجاه الديني بكل أطيافه المتحجّرة والواعية وبين التيارات المتغرّبة والمتشرّقة المتبرّمة من الدين وأهله. يقول الكاتب عن ظروف إيران آنئذ: «الكتابة حول الحج تحتاج إلى جرأة، إذ لابد للكاتب أن يتحمّل جفاء القشريين واستهزاء اللادينيين، فكلاهما قد سدّا الطريق أمام أهل القلم من الجانبين[3]».

وكعادة الصحفيين يحاول الكاتب أن يعثر على الموضوعات المثيرة، فيقف عند بعض السلوك الشاذ للحجاج ، وجهل بعضهم، والمفارقات الموجودة في موسم الحج، ومقابلاته لبعض الحجاج

١- محمد رضاخاني، خاطرات زيارت خانه خدا وعتبات عاليات در خدمت راهنما، به اهتمام حبيب الله پاك گوهر، وسيد محمود موسوي سعيدي، چاپ اول، ١٣٦٦هـ . ش، چاپخانه خواجه.

٢- محمد رضاخاني، راهيان سفر روحاني، چاپ اول، بهار ١٣٦٩هـ. ش.

٣- سفرنامه حج (أي قوم به حج رفته) جواد مجابي، چاپ اول ١٣٥٢هـ. ش ، انتشارات موج، تهران، ص ٤.

الأفارقة، والمشاكل التي تواجه الحجاج في المشاعر.

١٣- سعي هاجر. لعلها الرحلة الوحيدة المكتوبة بقلم امرأة، كاتبتها شكوه ميرزادگي، حجّت باعتبارها صحفية عام ١٣٩٧، وبأسلوب أخّاذ تحدّثت عن مشاهداتها في الحج، وعن الاهداف السامية التي تتضمنها هذه الفريضة الكبرى.

والرحلة تدل على ارتفاع في مستوى وعي النخبة المثقفة الإيرانية في تلك السنين، كما تدلّ أيضًا على الانحدار الذي بلغته نساء الطبقة المترفة في إيران آنذاك.

الكاتبة تتحدث بوعي سياسي واجتماعي عن الحج وأهدافه، وترى أنه الحرم الآمن من لوثة الحضارة المادية وبطش المدنية الغربية[1].

كما تتحدث في الوقت نفسه بأسلوب التنكيت عن النساء الإيرانيات المرفهات اللاتي يتحدثن في موسم الحج عن المال والثروة والذهب والتفاهات.

١٤- تحليل مناسك الحج. للدكتور علي شريعتي، وله كتابان في الحج: «ميعاد مع إبراهيم» و«تحليل مناسك الحج» ويتضمنان مجموعة أفكاره عن الحج بعد أن حجّ سنتي ١٩٧٠ و١٩٧١ والكاتب باعتباره متخصصًا في علم الاجتماع وعلم الأديان له آراؤه الخاصة في الحج لا نراها عند من سبقه ممن كتب في هذه الفريضة. ويعتبر

١- شكوه ميرزادگي، سعي هاجر، چاپ اول، ١٣٥٦، چاپ فاروس إيران، ص ٥٥.

الرجل في الواقع ممثلاً لطموح إسلامي برز في السبعينات يتوق إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة، بين لغة الدين ولغة الغرب. فالحج في رأيه يجعل كل ماقيل في علم الإنسان والتاريخ والدين والفلسفة يتبلور جملة في جوهر خالص وجهاز عظيم كامل متناسق كل التناسق.

بهذا المنظار يحلل الدكتور شريعتي في كتابيه مناسك الحج. فهي تمرين سنوي وعبر الأجيال من أجل أن يكون الفرد البشري إنسانا والمجتمع إبراهيميا[1].

ويطيل الدكتور شريعتي الحديث عن هاجر، فيرى كل الحج يرتبط بذكرى هاجر، والهجرة من هاجر، وهي أعظم حركة للإنسان الإلهي. فالمهاجر من صار كهاجر.

والهجرة حركة من التوحّش إلى المدنية، من الكفر إلى الإيمان، والعكس، أي التعرّب بعد الهجرة، هو كفر، لأنه انتقال إلى التوحّش. والدين يعني الحضارة[2].

١- دكتر علي شريعتي، ميعاد با ابراهيم، چاپ دوم، بهار ١٣٧٠ هـ . ش ، انتشارات مونا، ص ٥٥.

٢- دكتر علي شريعتي، تحليلي از مناسك حج، چاپ چهارم، ١٣٧٠هـ . ش، انتشارات الهام، ص ٥٠ - ٦١.

أدب الاختلاف في مسائل الحج

إنّ الحديث عن أي جانب من الإسلام يجب أن يكون ضمن إطار المشروع الإسلامي العام، والحديث التجزيئي عن أية مسألة إسلامية، أي الحديث عنها دون الأخذ بنظر الاعتبار هيكلية المشروع الإسلامي، سوف يُمنى باحتمال الانحراف في المنهج وبالانحراف عن المقاصد.

باختصار نرى أن الإسلام هو الحياة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤)

وأهمّ مظاهر الحياة: النمو المستمر في الموجود الحيّ والترابط العضوي بين أجزائه.

المجتمع الإسلامي هو المجتمع السائر نحو الله سبحانه، أي المتحرك باستمرار نحو الكمال، فالله سبحانه هو الكامل المطلق، والحركة نحوه سبحانه تكامل في كل مكونات الكائن البشري من معنوية ومادية. والمجتمع البشري هو أيضا مترابط عضويًا: «إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى».

هذه الحركة تتجه بطبيعتها نحو بناء صرح الحضارة الإنسانية

التي هي تبلور التطوير المعنوي والمادي للمجتمع. وهكذا كان الإسلام في تاريخه: بناء أمة متحركة على طريق كمالها المادي والمعنوي لبناء حضارة إنسانية. وهذه الحضارة أفلت لأسباب تاريخية، لكنها لاتزال أملَ المسلمين، بل البشرية المتطلعة إلى مشروع حضاري إنساني.

وفي هذا السياق نتناول أدب الاختلاف في مسائل الحج بما يحمله من دلالات حضارية.

الاختلاف ظاهرة حضاريّة الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي كرمه الله بنفخة من روحه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ (الحجر:٢٩) وهو بهذه النفخة الرمزية قادر على أن يتطوّر ويتكامل وأن يقيم حضارة إنسانية يحقّق فيها مهمة الاستخلاف على ظهر الأرض. ولابدّ لهذا الكائن المكرّم، لكي يمارس هذه المهمّة، أن يكون مختارًا في تفكيره وسلوكه وانتخابه.

كلّ الأحياء تطوي مسيرتها المطلوبة دون أن يكون لها اختيار، ولذلك لا نرى في حياتها أي تغيير، إلاّ الإنسان فهو يتطوّر لأنه صاحب إرادة واختيار في التكامل والتغيير.

وهذا يستتبعه بشكل طبيعي اختلاف في التفكير والسلوك والانتخاب بين أبناء البشر. غير أن هذا الاختلاف هو من معطيات التكريم، ويعود بالتنويع والإثراء على مسيرة البشرية.

إذن الاختلاف الذي يأتي في سياق الحركة الحضارية هو خير ورحمة وبركة ومظهرُ تكريم للإنسان.

ومن الطبيعي أن هذا الاختلاف يؤدي إلى «تعارف» لأن الإنسان

المتحضّر في مسيرته التكاملية يبحث عن المعرفة يأخذها من الآخر، وهذا الآخر إذا كان متحضّرًا يأخذها منه، وهذا هو الحوار الحضاري.

أما إذا توقّفت الحركة الحضارية في المجموعة البشرية فإن العلاقة بين أفراد مجتمع الركود الحضاري سوف لا تكون علاقة تعارف وحوار، لأن المثل الأعلى لهؤلاء سوف لا يكون إلاّ المصالح الذاتية الفردية الصغيرة، وهذه تخلق التضاد والصراع بينهم، وتكون قلوبهم مشتتة ونفوسهم متنافرة حتى و إن تظاهروا بتجمّع مصلحي: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَومٌ لا يَعْقِلُون﴾ (الحشر:١٤)

المفكر الإسلامي الكبير محمد باقر الصدر يتناول هذه الظاهرة من خلال نظرية «المثل الأعلى»، فهو يرى أنّ لكل كائن إنساني ومجموعة بشرية «إله»، وهذا الإله هو نفسه «المثل الأعلى»، والمُثُل العليا منها الهابط ومنها المتوسط، ومنها المثل الأعلى المطلق الحق وهو الله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى﴾(النحل:٦٠)

يرى أننا نستطيع أن نفهم رقيّ المجتمع في مدارج الحضارة الإنسانية من خلال ما يتبناه من مثل أعلى. فالمثل الأعلى الهابط هو المنتَزع عن واقع الجماعة بحدودها وقيودها ويعتمد على تجميد الواقع وتحويل ظروفه النسبية إلى ظروف مطلقة كي لا تستطيع الجماعة البشرية أن تتجاوزه.

ويعود تبنّي هذا المثل الأعلى ـ في رأيه ـ إلى سببين: الأول الألفة

والعادة والخمول والضياع، وهو سبب نفسي، و إلى هذا يشير القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (المائدة:١٠٤)، ﴿قالوا: أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾(يونس:٧٨).

والسبب الثاني لتبني هذا المثل الأعلى المنخفض وهو التسلّط الفرعوني، وفرعون يريد دائمًا أن يضع الناس كلهم في إطار رؤيته، ويحوّل هذه الرؤية إلى مطلق: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص:٣٨).

والأمة التي تعيش مثل هذا المثل الأعلى تعيش حياة تكرارية، ليس لها مستقبل و إنما مستقبلها هو ماضيها، وهي حياة لا تتناسب مع الطبيعة البشرية، لذلك تفقد ولاءها لهذا المثل الأعلى بالتدريج ويصبح أفرادها قلوبًا متفرقة وأهواءًا مشتتة وأرواحًا مبعثرة وعقولاً مجمّدة، ولا تبقى أمة بل شبح أمة.

هذا المجتمع الذي يفقد تطلّعه المستقبلي التكاملي، لا يمكن أن نتوقع فيه اختلافا حضاريًا، بل تسوده مظاهر الصراع المصلحي. المجتمع الذي يستطيع أن يتحاور ويسمع ويختار وينتخب هو الذي اجتنب الطاغوت، سواء كان عادة مؤلّهة أو فرعونًا مؤلهًا: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إلى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٦ ـ ١٧)

الكرامة والحضارة الحديث عن الإنسان المتحضّر هو نفسه

الحديث عن الإنسان الذي كرّمه الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الاسراء:٧٠) وذكرنا أن الإنسان مُكرّم بنفخة ربّ العالمين، وهنا أودّ أن أقف عند ارتباط الكرامة بالمسيرة الحضارية للبشرية من خلال النظرية التيموسية التي قدمها فرنسيس فوكوياما في كتابه «نهاية التاريخ والإنسان الأخيرة».

و«التيموس» (Thymos) يعني نزعة الإنسان الفطرية إلى الاعتراف بكرامته. وهو اصطلاح أفلاطوني، إذ ذكر في «الجمهورية» أن الإنسان بالإضافة إلى رغباته وعقله يمتلك التيموس أو روح الحياة. واتخذه هيغل أساسًا لتفسير حركة التاريخ ورأى أنه محرّك السيرورة التاريخية بكاملها.

فوكوياما طبعا وظّف هذا المفهوم للانتصار إلى العولمة الأمريكية واعتبار الليبرالية الديمقراطية التي تبشر بها أمريكا هي المشروع الوحيد الذي يحقّق طموح البشرية للكرامة.

ولو أعرضنا عن هذا التوظيف الأيدلوجي، لوجدنا في النظرية أبعادًا مهمّة، فهي أولاً تفسّر حركة التاريخ على أساس إرادة إنسانية، ثم تضع الكرامة هدفًا أسمى للإنسان يضحي من أجلها بكل شيء حتى بحياته.

والواقع أن الكرامة مقصد إسلامي كبير تتجه إلى تحقيقه كل أصول الدين وفروعه. وهذا المقصد مغيّب إلى حدٍّ كبير في حياتنا التي يسودها الركود الحضاري. ولعلّ مظاهر التكفير وتراشق التهم وأعمال العنف وسفك الدماء بين المسلمين هو في

معظمه من إفرازات تغييب هذا الأصل.

والتأكيد على كرامة الإنسان تستفيض به النصوص الإسلامية، ابتداءًا من تكريم الجنين إلى الطفل ومرورًا بعدم جواز انتهاك حرمة الإنسان في حضوره وغيبته إلى تكريم جسد الميت وعدم جواز المثلة حتى بالكلب العقور.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الهدف الأول من الدين هو صيانة كرامة الإنسان، ثم إن التاريخ يشهد أن كرامة الإنسان لا تتحقق إلا في ظل الدين الذي يكشف للإنسان حقيقته ويبعده عن السقوط في الذلّ والهوان.

ولارتباط الكرامة بالحضارة، فثمة ارتباط وثيق بين الحضارة والدين. من هنا نفهم ماذهب اليه مالك بن نبي حيث يقول: «فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلاّ في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجًا، أوهي ـ على الاقل ـ تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام، فكأنما قُدّر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ماوراء حياته الأرضية أو بعيدًا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته وتتفاعل معها».

مما تقدم نفهم الارتباط بين الكرامة والحضارة والدين، وارتباط ذلك بالاختلاف الحضاري بين الأفراد. أدب الاختلاف عنوان يقرّ الاختلاف، ولكن يشترط عليه أن يكون مؤطّرًا بآدابه الخاصة.

وأقف عند المعنى اللغوي لكلمة أدب لأن فيها دلالة على السياق الذي نحن فيه. تعلمون أن كلمة «أدَبَ» أي أقام مأدبة، ثم تطورت كلمة الأدب لتعني مكارم الأخلاق، ثم أصبحت تعني ثقافة العصر ثم أصبحت تعني الجميل المؤثّر من الكلام المنثور أو المنظوم. وثَمّ معنى مشترك في كل هذا التغيير، وهو التكريم سواءًا في المأدبة، أو الثقافة التي يتميز بها الإنسان ويسمو ويرتفع، أو في قدرته على ابتكار أجمل الكلام والارتباط الشعوري مع الآخرين.

وأدب الاختلاف إذن يعني فهم الاختلاف في ضوء كرامة الإنسان، وكرامته تتبلور كما قلنا في حركة هذا الموجود نحو كماله المعنوي والمادي.

والإنسان في إطار الكرامة يتعامل مع الاختلاف تعاملاً حضاريًا نذكر بعض معالمه:

١ـ إنه يفرّق بين المفيد من الكلام واللغو منه، فيترفع عن الخوض في مالا طائل تحته، ولا يخوض في اللغو: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ (الفرقان:٧٢) ، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾(الفرقان:٦٣)

٢ ـ ينفتح على كل الآراء والأفكار ويختار أفضلها وأجداها: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه﴾(الزمر:١٨)

٣ ـ لا يتخذ موقفه من الآخر من منطلق ذاتي مصلحي فئوي ولا يكون ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم:٣٢)

٤ ـ يدعو الآخرين إلى الحوار في المشتركات، ولا يحصر نظره على الاختلافات: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾(آل عمران:٦٤) .

٥ ـ يدخل في الدعوة وهو مجهّز بالحكمة وبأحسن الخطاب، وبأفضل السبل: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل:١٢٥)

٦ ـ يمارس اللين في التعامل ويبتعد عن الانفعال والخصام: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾(فصلت:٣٤).

٧ ـ احترام الآخر في الخطاب وازالة الحواجز النفسية مع المخاطب:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾(سبأ:٢٤)

وهذا الأدب في التعامل مع الآخر كان الطابع الغالب على المسيرة الإسلامية في عصر الصحابة، وفي العصور التالية بين العلماء والفقهاء وأصحاب التيارات الفكرية. وهذا هو العامل الأساس في نجاح الدعوة الإسلامية واستمرارها، وكسب الشعوب إلى جانبها[٤].

البعد الحضاري التكريمي في الحج

كل العبادات هي تركيز على ارتباط الإنسان بالمثل الأعلى

المطلق الحق سبحانه، ومن ثَمّ فهي توجّه الإنسان نحو حركة تكاملية غير محدودة، وتزيل من طريقة الآلهة المتعملقة التي تُحدّ مسيره أو تقطع عليه الطريق.

غير أن فريضة الحج فيها من المنهج ما يشكّل مدرسة للتكريم وبالتالي إلى الحركة الحضارية، ومن ثم إلى التأدّب بآداب الاختلاف التي لا يُلقّاها إلاّ ذو إحساس بالكرامة وبالشعور الحضاري. ونقف عند بعض معطيات الحج في صياغة الجماعة المتحضرة والإنسان المتحضّر.

١ ـ الارتباط بالمطلق يحتاج إلى تعبير عملي وسلوك حسّي يعمق الارتباط بالمثل الأعلى الحق ويوجهه الوجهة الصحيحة المنسجمة مع سائر احتياجات الفرد والمجموعة البشرية.

العبادات عامة والحج، بما فيه من مناسك حسيّة، ينهض بدور هام في توثيق الارتباط بالمطلق الحق.

فالحج وفود على الله، ومناسكه تلبية لنداء الله وطواف حول بيت الله وسعي ووقوف ورمي وتضحية في سبيل الله. ومناسكه تلبية لنداء الله. وتوثيق الارتباط بالله له الأثر الكبير كما أوضحنا في دفع المسيرة نحو الكمال المطلق و إزالة كل العوائق التي تقف بوجه المسيرة.

٢ ـ العمل الفردي لا يمكن أن يتحول إلى عمل اجتماعي ذي آثار على المسيرة البشرية إلا إذا تعدّى حدود عامله، أي أن يتجاوز الذات، ويدخل في حياة الآخرين.

والعبادات تربي الإنسان على تجاوز الذات، ومناسك الحج فيها العطاء التربوي الكثير في هذا المجال. القدوم إلى بيت الله الحرام من كل فج عميق، وعلى كل ضامر، والتضحية بالمال وبذل ألوان الجهود كلها تنهض بدور تربية الإنسان على الإيثار وكسر الأنانية. الأحاديث الشريفة التي تحذر من الرياء في أداء فريضة الحج ومناسكه، تؤكد على حقيقة تجاوز الذات في حركة الإنسان ونشاطه، وتربي الإنسان على العمل المساهم في دفع عجلة المسيرة التاريخية نحو كمالها المنشود.

٣ ـ ذكرنا دور الشعور بالمسؤولية باعتباره ضمانًا لاستمرار المسيرة وتكاملها. والشعور بالمسؤولية هو الإحساس الداخلي الدافع للإنسان على الالتزام بالمسيرة وضبط النفس على مواصلة الطريق، وفي مناسك الحج تعليمات كثيرة تربي هذا الإحساس بالمسؤولية، وتمرن الإنسان على الانضباط الدقيق أمام المطلق الحق ورقابته الغيبية. وتتجلى هذه التعاليم بوضوح فيما يجب ويستحب ويكره ويحرم على الإنسان المحرم في موسم الحج، كما تتجلى في الآية التي تتحدث هن عطاء الهدي، حيث تنفي أن يكون الهدي تكريسًا لذات الله، كما تفعل الآلهة المتفرعنة في أوامرها لاتباعها، وتؤكد أن الهدف من الهدي هو (التقوى)، أو الانضباط على خط المسيرة:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الحج:٣٧).

٤ ـ الحج تربية للامة على (الحركة) في طريق المطلق الحق.

ولعل فريضة الحج أكثر فرائض الله احتفالا بالحركة من طواف وسعي و إفاضة. وهذه الحركة المستمرة إشعار للموحدين على أن الارتباط بالمطلق الحق لا ينفك عن الحركة على سبيله، وتأكيد على أن الخمود والجمود يعني الانحراف عن الطريق الذي أراده الله للامة المسلمة.

٥ ـ حركة المسلمين في إطار مناسك الحج تتميز بالجماعية والتنسيق وزوال الفوارق. وهي تجسِّد المسيرة الصحيحة نحو الإله الواحد الاحد. فهي مسيرة جماعية تتجه فيها المجموعة البشرية نحو هدفها التكاملي، وليست مسيرة هذا الفرد أو ذاك. كما أنها ليست بالمسيرة المبعثرة المتفرقة المتشعبة، بل منسّقة تتجه في كل منعطفات التاريخ اتجاهًا منسقًا موحدًا كما أن المسيرة تتميز بزوال الفوارق الطبقية العنصرية.

جميع هذه المظاهر اللازمة للمسيرة البشرية على طريق الله نشهد مظاهرها في حركة الحجاج المجردين من كل مظاهر الزينة والتفاخر والموحّدين في الملبس والمتّجهين بنسق واحد في حركة الطواف والإفاضة.

٦ ـ التحرك الواعي على طريق المسيرة. فالوعي والتفتح أو «استماع القول واتباع أحسنه» بالتعبير القرآني من صفات المسيرة المتجنبة للطاغوت، والمنيبة إلى الله.

هذه الصفة تتجسد في حركة الحجاج من خلال تأكيد الإسلام على عدم الوقوف عند الشكل الظاهر من الشعائر، بل

تجاوز الظاهر للتوغل إلى عمق الشعائر.

الجهل في تاريخ البشرية ينطلق من قاعدة واحدة على مرّ العصور وهي عدم التوغل في مظاهر الحياة المشهودة وعدم التعمّق في كنهها. وعلى العكس من ذلك العلم، فهو ينطلق دومًا من ذهن أَلِفَ الانتقال من المظاهر إلى الأعماق. كم من إنسان شاهد على مر التاريخ سقوط تفاحة من الشجرة وهو غير مبال بهذا السقوط المألوف العادي. لكن الذهن المتفتح انتقل من هذا السقوط العادي إلى اكتشاف قانون الجاذبية.

مشكلة الجهل هذه قائمة حتى في المجتمعات المتطورة في العلوم المادية اليوم، وتتمثل في افتتان الإنسان الغربي بما اكتشفته من معادلات وقوانين، فحوّلها إلى مطلق لا يرى وراءها المطلق الحقيقي، «وأصبح يقدم للعلوم المادية فروض الطاعة والولاء، ويرفض من أجلها كل القيم والحقائق التي لا يمكن قياسها بالأمتار أو رؤيتها بالمجهر».

٧ ـ التحرك المثمر. وقد ذكرنا أن الحركة على طريق المطلق الحق مقرونة دومًا بالعطاء وعطاء الحج نموذج مصغّر لذلك.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الإسلام ترك للأمة المتحركة، بوعيها على متطلباتها الحياتية، أن تشخص المنافع التي تجنيها من موسم الحج، ولذلك جاءت كلمة (منافع) الحج في الآية بصيغة النكرة، لتؤكّد على مطلق المنافع التي تراها الأمة الواعية السائرة على خط الله مقومة لوجودها.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ ((الحج:٢٧-٢٨)

جدير بالذكر أن هذه المنافع لا تتحقق إلا عندما تكون هناك (أمة)، وتكون هناك(حركة) على طريق الله، عند ذاك تكون الحركة مقرونة بالعطاء ومقرونة بالمنافع بما في ذلك حركة الأمة في موسم الحج. أما عندما تطوف بالبيت مجموعة بشرية راكدة هامدة كالذي كان يفعله الجاهليون قبل الإسلام، فلات حين عطاء، ولاتَ حينَ منافع. لأن هذه المجموعة البشرية لا تستطيع أن تفهم سبلَ الاتجاه نحو العطاء:﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت:٦٩).

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(البقرة:٢١٨).

٨ ــ الهدم والبناء عمليتان ترافقان كل حركة اجتماعية تكاملية.

حينما تكون الحركة على طريق الله، يتوازن الهدم والبناء فيها بشكل ينسجم وطبيعة واقع التحرك البشري، دونما إفراط في الهدم ووقوع في الفوضوية، ودونما إفراط في الاتجاه نحو البناء و إهمال عملية الهدم والوقوع بالتالي في عملية المراوحة خلف الحواجز والسدود.

عمليات بناء الإنسان المتحرك والمجموعة البشرية المتحركة على خط الله استخلصناها في معطيات الحج المذكورة آنفًا، وهنا نشير

إلى اقتران هذه العمليات بالهدم اللازم لاستمرار الحركة.

رمي الجمار الكبرى والوسطى والصغرى مرات في مناسك الحج يرمز إلى جانب هام من جوانب حركة الإنسان المتمثل في صراعه لكل العوامل المضادة التي تقف في طريق حركته.

الجمار ترمز إلى الشيطان كما جاء في الروايات الإسلامية، والشيطان يمثل كل عوامل صدّ الأمة عن مسيرتها نحو الله. ورمي هذه الجمار يرمز إلى مقارعة هذه العوامل المضادة بالقوة وعلى الحاج أن يتجهز مسبقًا بسلاح الرمي من المشعر الحرام، فيلتقط منه حُصيّاته، ويتجه إلى منى للرمي.

انطواء مسيرة الحج على تقديم الأضحية في سبيل الله يشعر أيضا بأن الروح السلمية الوادعة التي يحملها الحاج حين الإحرام حتى بالنسبة للبهائم وحشائش الأرض، ينبغي أن تقترن بروح التضحية لأن المسيرة التكاملية نحو الله تتطلب ذلك.

٩ ـ المسيرة المتصلة، القرآن الكريم يفيض في شرح قصص الأنبياء والأمم السابقة ليخلص منها إلى نتيجة واحدة هي إن السنن الحاكمة على مسيرة التوحيد واحدة على مر التاريخ وهكذا السنن الحاكمة على خط الشرك واحدة أيضًا لا تتغير.

هذه النتيجة توضح للأمة المسلمة أنها تسير على خط عريق تمتد جذوره إلى أعماق التاريخ سار عليه كل الأنبياء والصالحون في التاريخ وهو خط له سننه الخاصة وقوانينه التي لا تتغير ولا تتبدل، ولا يخفي مالهذا الاستشعار من عطاء ثر يؤصّل إيمان الأمة المسلمة بطريقها ويفسح لها فرصة الاستفادة من تجارب الرهط الكريم

الذي سبقها في موكب الإيمان.

الحج ينهض بدورهام في التأكيد الحسي على هذا الاتصال. فالأمة المسلمة تطوف حول نفس البيت الذي وضع قواعده إبراهيم وتسعى وتهرول على نفس طريق المرأة الصالحة هاجر، وتضحي استشعارًا لتضحية إسماعيل. وبذلك تنشدّ الأمة المسلمة بمسيرة التوحيد التاريخية العريقة بكل ما تتطلبه المسيرة من صبر ومعاناة وتضحيات واستقامة ومواصلة.

الحج ساحة لممارسة أدب الاختلاف

كما أن الحج مدرسة لتعليم أدب الاختلاف من خلال معطياته التكريمية الحضارية، فهو أيضا ساحة عملية لممارسة آداب الاختلاف، من خلال مايلي:

١ـ فهم المساحات المشتركة بين المسلمين في العقيدة والعبادة والحركة والآمال والآلام، وهذا ما يستطيع أن يقضي على الحساسيات النفسية التي تخلقها مصالح الحكم بين المسلمين. والحج بالمناسبة في أبعاده العبادية الواسعة يكاد يجمع عليه المسلمون بكل تفاصيله.

وقد يعود السبب في ذلك إلى أن حجة الوداع قد رواها أصحاب الصحاح والمسانيد عن جعفر بن محمد الصادق عن أبيه محمد بن علي الباقر عن جابر بن عبدالله الأنصاري.

ونفس الرواية مع اختلاف طفيف أوردها الكليني في الكافي عن علي بن إبراهيم عن أبيه، ومحمد بن إسماعيل عن الفضل بن

شاذان جميعًا عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق.

ويذكر أحد تلاميذ المرجع الكبير الفقيد السيد حسين الطباطبائي البروجردي أن الفقيد «تسلم هدايا من الملك سعود لدى زيارة هذا الأخير إلى إيران ومعها قطعة من ستار الكعبة، فكتب آية الله البروجردي إليه رسالة طبعت في مجلة «رسالة الإسلام»، ذكر له فيها أنه استلم الهدايا، ولكنه يعيدها لأنه ليس من عادته أن يقبل هدايا الملوك، واحتفظ بقطعة ستار الكعبة فقط تبركًا. والمرحوم الأستاذ بعث مع الرسالة حديث حجة الوداع بتفاصيلة. ويبدو أن الأستاذ أراد من إرسال الحديث الإشارة إلى أن هذا الحديث الشريف يُشكّل في سنده نقطة التقاء حديثي بين السنة والشيعة، إضافة إلى أن العمل بحتواه يستطيع أن يوحّد المسلمين في عمل الحج، ويزيل على الأقل بعض الاختلافات الموجودة في مسألة الحج بما في ذلك (حجّ التمتع)».

٢ ـ التمرين على الحركة المنسجمة، وهي مشهودة في الطواف والسعي، واكثر من ذلك في الوقوفين والإفاضة والمبيت والعيد، ولا يجوز أن ينفرد الحاج عن الجماعة حتى ولو ثبت له أن الوقوف ليس في الوقت المعلَن في بلاد الحرمين الشريفين. وهذه الحركة المنسجمة درس لما يجب أن يكون عليه المسلمون من انسجام في كل شؤونهم الحياتية.

٣ ـ التمرين على خطاب الحوار، فهذه العبادة قد حُظر فيها (الجدال). والجدال غير الحوار، الجدال مظهر من مظاهر التخلّف

يعبّر عن ذاتية المجادل وأنانيته ورغبته في فرض رأيه على الآخر. المجادل لا يسمع، بل يتكلّم، وهو حين يواجه إنسانا يتحدّث معه، فإنه لا يُصغي، و إن رأيته أمام المتكلّم ساكتًا، فهو يتكلّم أيضًا في انتظار الردّ والمجادلة والمخاصمة, وهذه الحالة قد حُظرت في الحج في سياق حظر المحرمات التي تبطل الفريضة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:١٩٧).

وحظر الجدال يعني إقامة علاقة مع الآخر قائمة على الحوار. وفي الحوار كما ذكرنا كلام واستماع، و رأي و رأي آخر، وأخذ وعطاء. وهي ظاهرة حضارية لا تتحقق إلا في حالة اجتناب الطاغوت، أي اجتناب العوائق التي تقف في طريق كمال الإنسان والآلهة التي تتعملق في مسيرته: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ، الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ (الزمر:١٧)

٤ ـ التمرين على النظر إلى الأهداف البعيدة للشريعة، والحج مفعم برموز البناء الحضاري للإنسان والمجموعة البشرية. وفي النصوص الإسلامية تأكيد على معرفة ما في المناسك من عطاء تربوي بنّاء.

من ذلك ما روي عن علي بن الحسين زين العابدين من نصّ أنقل مقتطفاته لارتباطه بالمقاصد البناءة الحج، وهي المقاصد التي لو

تحققت لارتفع الإنسان إلى المستوى الذي يتحقق فيه أدب الاختلاف.

«لما رجع مولانا زين العابدين عليه السلام من الحج استقبله الشبلي.

فقال عليه السلام له: حججت يا شبلي؟ قال: نعم يابن رسول الله...

قال عليه السلام: فحين نزلت الميقات نويت أنك خلعت ثوب المعصية ولبست ثوب الطاعة؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فحين تجردت عن مخيط ثيابك نويت أنك تجرَّدت من الرياء والنفاق والدّخول في الشبهات؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فحين اغتسلت نويت أنك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ قالا: لا.

قال عليه السلام: فما نزلت الميقات ولا تجرَّدت عن مخيط الثياب ولا اغتسلت...

قال عليه السلام: فحين تنظَّفت وأحرمت وعقدت الحج نويت أنك تنظَّفت بنورة التوبة الخالصة لله تعالى؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فحين أحرمت نويت أنك حرَّمت على نفسك كل محرم حرَّمه الله عزّوجل؟ قال: لا.

قال عليه السلام : فحين عقدت الحج نويت أنك قد حللت كل عقد لغير الله؟ قال: لا.

قال له عليه السلام: ما تنظَّفت ولا أحرمت ولا عقدت الحجَّ.

قال عليه السلام: فحين صليت الركعتين نويت أنك تقربت إلى الله

بخير الأعمال من الصلاة وأكبر حسنات العباد؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فحين لبّيت نويت أنك نطقت لله سبحانه بكل طاعة وصمتَّ عن كلِّ معصية؟ قال: لا.

قال له عليه السلام: ما دخلتَ الميقات ولا صليت ولا لبّيتَ... قال عليه السلام: فحين دخلت الحرم نويت أنك حرَّمت على نفسك كلَّ غيبة تستغيبها المسلمين من أهل ملّة الإسلام؟ قال: لا. قال عليه السلام: فحين وصلت مكة نويت بقلبك أنك قصدت الله؟

قال لا.

قال عليه السلام: فما دخلت الحرم ولا رأيت الكعبة ولا صلّيت...

قال عليه السلام: فحين سعيت نويت أنك هربت إلى الله وعرف ذلك منك علاّم الغيوب؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فما طفت بالبيت ولا مسست الأركان ولا سعيت.

ثم قال عليه السلام: من صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالى...

ثم قال عليه السلام: نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم عليه السلام أنك وقفت على كل طاعة وتخلّفت عن كل معصية؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فحين صليت فيه ركعتين نويت أنك صليت بصلوة إبراهيم عليه السلام وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟ قال: لا. قال عليه السلام له: فما صافحت الحجر الأسود ولا وقفت عند المقام ولا صليت فيه ركعتين...

ثم قال عليه السلام له: أسعيتَ بين الصّفا والمروة ومشيت وتردَّدت بينهما؟ قال: نعم.

قال عليه السلام له: نويت أنك بين الرجاء والخوف؟ قال: لا. قال عليه السلام: فما سعيت ولا مشيت ولا تردَّدت بين الصّفا والمروة.

ثم قال عليه السلام: أخرجتَ إلى منى؟ قال: نعم. قال عليه السلام: نويت أنّك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال:لا قال عليه السلام: فما خرجت إلى منى...

قال عليه السلام: فعندما مشيت بمزدلفة ولقطت منها الحصى نويت أنك ترفَّعتَ عن كل معصية وجهل وثبتَّ كلَّ علم وعمل؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فعند ما مررت بالمشعر الحرام نويت أنك أشعرت قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عزوجل؟ قال: لا. قال عليه السلام: فما مررت بالعلمين ولا صلّيت ركعتين ولا مشيت بالمزدلفة ولا رفعت منها الحصى ولا مررت بالمشعر الحرام..

قال عليه السلام: فعندما رميت الجمار نويت أنّك رميت عدوّك إبليس وعصيته..؟ قال: لا.

قال عليه السلام: فعندما حلقت رأسك نويت أنك تطهَّرت من الأدناس ومن تبعة بني آدم وخرجت من الذنوب كما ولدتك أمّك ؟ قال: لا.

قال عليه السلام : فعندما صليت في مسجد الخيف نويت أنك لا

تخاف إلا الله عزوجلَّ وذنبك ولا ترجو إلا رحمة الله تعالى؟ قال: لا. قال عليه السلام: فعندما ذبحت هديك نويت أنك ذبحت حنجرة الطَّمع؟... قال: لا.

قال عليه السلام: فعندما رجعت إلى مكة وطفت طواف الإفاضة نويت أنك أفضت من رحمة الله تعالى ورجعت إلى طاعته وتمسَّكت بوده وأديت فرائضه وتقرَّبت إلى الله تعالى؟ قال: لا. قال له زين العابدين عليه السلام: فما وصلت منى ولا رميت الجمار ولا حلقت رأسك ولا أديتَ نسكك ولا صلَّيت في مسجد الخيف ولا طفت طوائف الإفاضة ولا تقرَّبت، ارجع فإنَّك لم تحجَّ. فطفق الشبلي يبكي على ما فرَّطه في حجّه ومازال يتعلم حتى حج من قابل بمعرفة ويقين»[٩].

تلخيص واستنتاج الحج مدرسة لأدب الاختلاف وساحة لممارسة هذا الأدب عمليًا. فهو مدرسة للامة يغذّي المسلم والجماعة المسلمة بالكرامة التي هي أساس كل تطوّر حضاري، وفي ظل الجوّ الحضاري يعرف الإنسان كيف يتحاور وكيف يختلف وكيف يستثمر الاختلاف لإثراء مسيرته التكاملية.

كما أنه ساحة لممارسة أدب الاختلاف حين يعيش الحجاج عبادة جماعيةً منسجمةً بعيدةً عن الجدال وعن الارتكاس في الذات الضيقة، ومفعمة بالرموز التي تشكل معالم في طريق مسيرة الإنسان نحو الكامل المطلق سبحانه.

نظرة في كتاب

روح الصلاة في الإسلام

لعفيف عبد الفتاح طبّارة

اشتهر الاستاذ طبّارة بكتابه *روح الدين الإسلامي*، فقد وجد فيه القرّاء ما يوضّح لهم حقيقة أهداف الإسلام وتعاليمه السامية، ويميّز بين الأصول والفروع، وبين الروح والجسد، وبين اللب والقشور، فجاء ردًا على أولئك الذين يقفون عند الظواهر فيتناقشون فيها ويتجادلون حولها، ويتخاصمون بشأنها، تاركين الروح واللب. وهو توجّه تقريبي بين المسلمين بكافة طوائفهم.

ثم صدر كتابه الثاني *اليهود في القرآن* ليحسس المسلمين جميعا بالخطر المحدق بهم، وبالتآمر التاريخي الذي يحيطهم، وبقوانين التاريخ التي تفصل بين المسلمين وأعدائهم، كل ذلك ليخلق روحًا إسلامية موحدة بين جميع المسلمين تجاه ما يواجههم من تحديات وهو دون شك توجه يصبّ في هدف التقريب بالصميم.

ثم جاء كتابه الثالث *روح الصلاة في الإسلام* ليركز توجهه في الكتابين السابقين، وليوجه جميع المسلمين الوجهة الصحيحة في الوقوف بين يدي رب العالمين وفي التوجّه الى الكعبة والبيت العتيق.

ويظهر من عنوان الكتاب أن الكاتب يركز على المعنى العميق لعبادة الصلاة وحكمتها الروحية والنفسية والاجتماعية والصحية.

١ - اعتمدنا في هذه المراجعة على الطبعة الثالثة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

يتناول في الباب الأول من الكتاب منزلة الصلاة في الإسلام بل في جميع الأديان السماوية ومفهومها، واقترانها بالفضائل. وفي الباب الثاني يتحدث عن المعاني الروحية في الصلاة وتفسير لطيف لسورة الفاتحة. وفي الباب الثالث يتناول شروط الصلاة والطهارة. وفي الباب الرابع يبين معاني أفعال الصلاة وأقوالها، وكيفية تعلم الصلاة. وركز الباب الخامس على الصلاة جماعة وعن رسالة المسجد في جمع المؤمنين. وخصص الباب السادس للصلوات المسنونة.

وفي جميع هذه الفصول سعى المؤلف لأن يقرّب بين آراء مذاهب أهل السنّة في شكل الصلاة، ويتجلى سعيه أكثر في التركيز على روح الصلاة ومحتواها النفسي والتربوي، وهو حديث ينفذ الى أعماق قلب كل مسلم أيًا كان مذهبه.

ويتبلور التوجه التقريبي عند المؤلف أكثر في الباب السابع من الكتاب الذي خصصه للصلاة في المذهب الجعفري. وبدأه بدعوة الى التقارب بين السنة والشيعة فقال:

الشيعة طائفة من طوائف المسلمين ومذهب من مذاهب الإسلام يتفقون مع مذهب أهل السنة في أصول الإسلام، ولا يختلفون معهم في أي ركن من أركان الإسلام، ولئن كان هناك خلاف فهو خلاف طفيف في بعض الفروع وهو شبيه بالخلاف بين المذاهب

الأربعة وبين الفقهاء بعضهم مع بعض.

ولو أن أهل السنة تعرفوا على إخوانهم الإمامية من الشيعة، وتعرّف الشيعة على إخوانهم أهل السنة لتبين لهم جميعًا أن الخلاف بينهم ليس على أصول الإسلام، وأن كثيرًا من الشبه التي راجت في العقول ليست إلا من صنع المفترين ومن صنع أعدائهم الذين أدخلوا في الإسلام ماليس منه، وشغلوهم بالجدل والخصام عن روح الإسلام حتى انهكوا قواهم، وفرقوا شملهم، فسهل عليهم بذلك الاستيلاء على أراضيهم واستغلال خيراتهم.

إن المسلمين اليوم في ضعف لأنهم متفرقون في أوطان شتى يُعادي بعضهم بعضًا، وسبب هذه التفرقة والعداء أنهم يجهلون بعضهم، والمثل يقول: من جهل شيئًا عاداه، فعامة أهل المذاهب يعتقدون - في الغالب - أنهم هم وحدهم الذين تحققت فيهم حقيقة الإسلام، وأن غيرهم من المنتمين لمذاهب إسلامية أخرى على باطل، وأن صلاتهم ليست مقبولة، وهذا اعتقاد نشأ من تأثير العزلة الطويلة التي فرضها أعداء الإسلام على أرض الإسلام فجعل كل طائفة تجهل حقيقة إسلام أختها وتصدّق ما يقال فيها من أباطيل. ولكن لِمَ هذا الاختلاف بين السنة والشيعة؟ وأي عذر لهم في هذا التباعد وقرآنهم الذي يقدسونه جميعًا وملزمون باتباع وصاياه يقول لهم: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء﴾.

دار التقريب بين المذاهب الإسلامية

ومما يثلج الصدر أنه قامت في القاهرة منذ أكثر من عشرين عاماً دعوة للتقريب بين المذاهب الإسلامية: السنة والشيعة، وكان شعارها: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾، وقد أثمرت هذه الدعوة ثمارًا حسنة وقد رأينا ثمارها في الأزهر الشريف حيث قرّر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعيها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلو من التعصب، كما أنه عند تكوين مجمع البحوث الإسلامية في القاهرة، حرص القيمون عليه أن يكون أعضاؤه ممثلين لمختلف المذاهب الإسلامية.

كما رأينا بوادر ذلك التقارب في فتوى شيخ الجامع الأزهر فضيلة الأستاذ محمود شلتوت حيث نشر فتوى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر ومنها: مذهب الشيعة الإمامية».

رأي بعض علماء السنة والشيعة

هذا وقد صدرت تصريحات من علماء السنة والشيعة المحدثين في الدعوة إلى التقارب وتضييق مجال الخلاف، يقول فضيلة الأستاذ محمد محمد المدني من علماء السنة ومن أعضاء (دار التقريب بين المذاهب) في غاية هذا التقارب: «ليس من غايتنا أن يترك السني مذهبه أو الشيعي مذهبه، و إنما نريد أن يتحد الجميع حول الأصول المتفق عليها، ويعذر بعضهم بعضًا فيما وراء ذلك مما ليس شرطًا من شروط الإيمان ولا ركنًا من أركان الإسلام، ولا إنكاراً لما هو معلوم من الدين بالضرورة».

ويقول فضيلة الاستاذ محمد أبو زهرة من كبار علماء الأزهر في

كتابه: *الامام الصادق*: «اختلف بعد الصحابة والتابعين الإمام زيد بن علي والإمام الباقر، والإمام جعفر الصادق والأئمة أبو حنيفة ومالك والأوزاعي والليث ابن سعد ثم بعدهم الشافعي فقد اختلف مع أصحاب مالك وأصحاب أبي حنيفة ولم يكن ذلك خصومة في دين، ولا اختلافًا في يقين، بل كان من ظواهر الإيمان الصادق والإدراك الحقيقي لمعاني الإسلام، ولم تتباين وجهات النظر فيما هو من أصول الدين، بل كان التباين في فروعه التي تختلف فيها الأنظار لعدم وجود نص قاطع فيها كما تختلف الأنظار في تفسير القوانين الآن إذا لم يكن نص القانون قاطعاً أو لم يكن هناك نص.... و إنه لإخلاص الفقهاء في اختلافهم كانوا يقولون: «رأينا صواب يحتمل الخطأ ورأي غيرنا خطأ يحتمل الصواب».

ثم يتابع قوله: «و إننا إذا علمنا أن ما نختلف فيه الآن هو اختلاف مذاهب لا افتراق فيه صار الخلاف بين الجعفرية وغيرهم كالاختلاف بين الحنفية والشافعية، ويفرض كل صاحب مذهب أن رأيه صواب يحتمل الخطأ ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب وبذلك تتسع الصدور لقبول الآراء المخالفة، ويتسع أفق التفكير الفقهي وتندمج النفوس وتزول النفرة، ويحل محلها أنس الوحدة الجامعة ويتحقق قوله تعالى: ﴿و إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾.

وانه إن حلت المذهبية محل الطائفية أصبح لكل إنسان أن يعتنق من الآراء الفكرية ما يشاء فيكون للجعفري أن يختار من الحنفي وللشافعي أن يختار من الجعفري».